زمن وليم أندريا

زمن وليم أندريا

د. حسن الجزولي

سيرة

ISBN 9789773120134

© Willows House 2021

الطبعـة الأولـى: 2021 منشورات ويلوز - جوبا

جميـع حقـوق النشـر محفوظـة للناشـر، ولا يحـق لأي شـخص أو مؤسسـة أو جهـة، إعـادة إصـدار هـذا الكتـاب، أو جـزء منـه، أو نقلـه، بـأي شـكل أو واسـطة مـن وسـائط نقـل المعلومـات، سـواء أكانـت إلكترونيـة أو ميكانيكـة، بمـا في ذلـك النسـخ أو التسـجيل أو التخزيـن أو الاسـترجاع، دون إذن خطّـيّ مـن الناشر.

All copyrights are reserved to the publisher, and no person, institution or entity has the right to reissue this book, or part of it, or transfer it, in any form or medium of information transmission, whether electronic or mechanical, including copying, recording or storing Or, without written permission from the publisher

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي النَّاشر

Willows House
منشـــورات
ويلوز هاوس

جنوب السودان، جوبا، كاتور، مربع ٨ جوار مركز جيران

www.willowshouse.net
www.jubabok.com
gatawillow@gmail.com
willowshouse3@gmail.com
+211927302302

د. حسـن الجـزولي
تقديم: د. مصطفى مدثر

زمن وليم أندريا

طبعة ثانية منقحة

غـــــــزال
السبعينيـــات
الأسمـــــــر

Willows House
منشـــورات
ويلوز هاوس

إهداء

إلى منى الجزولي

وزوجها الصديق مصطفى مدثر

وإلى أبنائهما طارق، غسان، رامي، بشرى

مع المحبة، والمحبة الدائمة.

إلى صديقي أتيم سايمون، الزميل الصحفي الذي ظل يبحث عن نسخة من هذا العمل، درجة أنه رتب لي مع الدار الناشرة بعاصمة بلادنا الأخرى بجنوب السودان اتفاقًا لطبعة ثانية.

إلى روح الصديقة ريا التوم الهدي والصحفي أبو بكر الأمين، والسينمائي محمد مصطفى الأمين.

وإلى محاسن إبراهيم نصر وعادل القصاص وعصام عبد الحفيظ.

وكـذا لبابكـر فيصـل ولهشـام صغـيرون والسـموأل عثمـان ومحمـد عثمـان "دق العيـش".

لبخيـت الصـادق النـور الصديـق وشـاهد العيـان لكثـير مـن وقائـع هـذا الكتـاب.

لنجلاء أيضًا.

وإلى مـن اتصـل بي مـن أبنـاء وبنـات الجيـل الحـالي الذيـن واللاتي عنـد قراءتهـم الكتـاب أبـدوا دهشـتهم وعـدم تصديقهـم بمـا كان عليـه حـال البـلاد في سـبعينيات القـرن المـاضي فيمـا يخـص تفاصيـل الحيـاة وبهجتهـا بالصـورة الـتي فصلناهـا بالكتـاب! ثـم لجميـع قـرائي الأعـزاء الذيـن ظلـوا ينبشـون أرفـف المكتبـات، عـلَّ الواحـد منهـم يظفـر بنسـخة مـن هـذا الكتـاب الـذي وجـد استحسـانًا وانتشـارًا واسـعًا، ونفـد سريعًـا وتأخـرت طبعتـه الثانيـة طويـلًا، وقـد وعدتهـم بتوفـير طبعـة ثانيـة وهئنـذا أوفي تقديـرًا لهـذه المحبـة منهـم تجـاه عمـلي المتواضـع هـذا.

إليهم جميعًا محبتي وإعزازي.

ح. الجــزولي

كندا ٢٠٢١

إهداء الطبعة الأولى

إلى ابنـتي الحبيبـة "مـرح" علهـا ونديداتهـا وكل بنـات الأرض وأولادهـا، كل أطفـال السـودان، "أطفـال السـودان مجروحـو الحدقـات" هنـا وهنـاك، سـواء في أجـواء دارفـور البغيضـة أم في أطـراف الـنزوح عنـد نواحـي جبـال النوبـة والنيـل الأزرق، أم في بقيـة ربـوع وأطـراف السـودان، أن يعيشـوا في وطـن ينعـم مقبـل أعوامـه بالمـرح والحبـور والسـعادة الدائمـة، الـتي تمـلأ جوانـح مسـتقبله بثقافـات متلاقحـة في فنـون البـلاد وطربهـا ورقصهـا وغنائهـا وموسـيقاها ولغاتهـا وثقافاتهـا المتعـددة بـكل تصالـح وتعـافي إنسـاني، وقيـم وأعـراف وتقاليـد حميـدة. وفي مجتمـع سـليم أساسـه قائـم عـلى دعامـات وقواعـد راسـخة ووطيـدة مـن الديمقراطيـة وصـون الحقـوق الأساسـية للنـاس والحريـات العامـة والعدالـة والتقـدم الاجتماعـي.

ح. الجـــزولي

أم درمان ٢٠١٤

تقديم الطبعة الثانية
د. مصطفى مدثر

كنت في واو وكان يومًا مطيرًا ومشوش الرؤى، أتاني فيه من خلل النبات المستفحل حول نافذة غرفتي يحدثني بصوته الخفيض. هو جاري في استراحة المدينة الرسمية، كان في مهمة إعلامية من الخرطوم وكنت أنا أتلمس تضاريس العيش في هذا الجزء من الوطن. كنت أراه من حين إلى آخر على دروب المدينة الترابية ونعتذر لبعضنا في عبارات مختصرة عن انشغالنا، لكنه ذلك اليوم بدا كأنه يحمل همًّا يخصنا نحن الاثنين، فكانت في عينيه دموع، وقميصه قد شذ عن إحاطة الحزام. قال لي لقد حاول المرتزقة قلب نظام النميري في الخرطوم، ولما كنت أعرف أن للنميري العديد من الغرماء والمناهضين الذين لا يحتاجون إلى أن يرتزقوا في نزاعهم معه، فقد غمَّ عليَّ وصفهم بالمرتزقة، كنت في الحقيقة حتى ذلك اليوم لا أعرف مرتزقة سوى أولئك الذين انتهت بمؤامراتهم أسطورة المناضل لوممبا قبل سنوات من تلك الأيام، وبالحدس وحده توصلت إلى أن صفة مرتزقة ربما هي مجردة فكرة خبيثة لتأليب الناس ضد كل من يحاول تغيير نظام مايو المستبد، فسألت

الرجـل عـن أحـوال أهلـه لحظتهـا في الخرطـوم وانصرفنـا، كل إلى تدبـير أمـر نومـه في الاسـتراحة وقـد بـدأ البعـوض تحويمـه الملـح فـوق رؤوسـنا.

وقبـل أن أنـام كانـت إثـارة انتهـاء الحكـم المتسـلط في الخرطوم قـد قـادت بأصابعـي تلعـب في مفاتيـح الراديـو بـدلًا عن مسـجل الكاسـيت كمـا كانـت عـادتي قبـل النـوم، فعرفـت أن ثمـة انقلاب قـد فشـل وأن النميـري قـد اسـتعاد قبضتـه، وهنـا تـورط عقـلي في سـؤال الخسـائر البشريـة، وتفقـدت في ذهـني أهـلي وصحـابي، ولـم يكـن لي دليـل فأسـلمت نفـسي للهواجـس وبضـع زخـات ذكرتهـا مـن رصـاص مـضى في ظـروف ماضيـة، غـير أنـني وجـدت صاحـبي في سـفرة بالاسـتراحة في مسـاء اليـوم التـالي. كان يحـكي لبعـض النـاس عـن كيـف مـات الفنـان لاعـب السـلة، ولأول مـرة أحسسـت أن مـا حـدث في الخرطـوم هـو شيء أكـبر مـن وصـف معـارضي النميـري بالمرتزقـة، بـل هـو في صورتـه الأولى بـدا أكـبر مـن فكـرة الارتـزاق. إذًا لقـد مـات وليـم أندريـا في ظـرف تظللـه دعـاوى حـدوث الخيانـة والتدخـل الأجنـبي. قلـت للرجـل ربمـا لا تعـرف يـا هـذا لكـن مـوت وليـم عنـدي أكـثر مدعـاة للدمـوع مـن الانقـلاب عـلى نمـيري! لمـاذا لـم تقـل لي إن وليـم مـات في الأحـداث؟ هـل كان مرتزقًـا؟ فغضـب الرجـل. وذهبـت أنـا كسـيفًا أسـيفًا. قلـت ربمـا كان وليـم إثيوبيًّـا مـن ناحيـة أمـه، لكنـه قطعًـا ليـس إنسـانًا هيِّنًـا يذهـب أدراج الفنـاء في عمـره اليانـع ذلـك برصاصـات تخـترق جسـده الرشـيق الطـروب. ليـس وهـو بجانـب فنـه، ريـاضي مرمـوق يحصـد الكـؤوس باسـم

السـودان، لقـد رُزِقَ السـودان بأمثالـه!

كانـت صـورة وليـم تتنامـى قبـل وفاتـه المأسـاوية، فهـو قمـر ذو وجهـين لامعـين، ريـاضي محطـم للأرقـام وقانـص ماهـر للجوائـز، وكذلـك هـو مغـنٍّ وعـازف يـشرق مـع صوتـه وحيويتـه ليـل الخرطـوم، وكان أكـثر مـا اسـتبشرنا بـه حـين سـمعنا بنيتـه الانزيـاح مـن هامـش التعبـير النقـلي، عـلى دقتـه وسـحره، نحـو موئـل الغنـاء بلغـة المدينـة السـودانية، نحـو أن يغـدو فنـان الشـباب السـوداني في مـد الأخـير الموسـوم بزهـوه بثـورة أكتوبـر ومـا فجرتـه في إنسـان السـودان مـن أمـاني وصبـوات. فقـد جـاءت أغنيتـه كفايـة مـزاح خبطـة غنائيـة وضعتـه في أعـلى قوائـم الشـباب الغنائيـة. كنـت حـتى نهايـة العـام السـابق لوفاتـه في ١٩٧٦ أقتفـي أثـره في الجامعـات ونـوادي الجاليـات، بـل كنـت حـاضرًا الحفـل الـذي أعلـن فيـه مجموعـةَ أغنيـات بلغتنـا السـودانية. وإلى ذلـك، فقـد كان أندريـا مذهـلًا في نقلـه الآسر والفـوري لجديـد غنـاء عقـد سـبعينيات القـرن المـاضي القـادم مـن وراء البحـار، ونذكـر هنـا تحديـدًا أداءه أغنيـة روك يـو بيـبي وأغنيـة الكونـج فـو، لكـن إعلانـه أغـاني سـودانية كان بمنزلـة ضربـة البدايـة الحقيقيـة المميـزة لـه... وهيهـات!

لقـد شـقت عـليَّ وفـاة هـذا الفنـان الريـاضي سَـمِحَ النفـس والأخـلاق، الوفـاة الـتي تمخضـت عـن خبـث وخسـة في معالجـة الخلـل الأمـني، الـذي عصـف بنظـام المسـتبد كون هـذا الخبث قـد حـشر شـخص بقيمـة وليـم أندريـا في قائمـة المشـبوهين

وبلا وجه حق، وهو المستحق أن يفخر به السودان ويجله، ولعل قيمة هذا الكتاب الذي بين يديك، قارئنا العزيز، هي في دعوته الجهيرة لهذا التكريم الواجب.

لقد أعطانا مؤلف الكتاب صورة شاملة ووصفًا بديعًا لحال الفن والرياضة، بل المزاج العام والتنوع السلوكي الحميد، مع الأخذ الدؤوب بأسباب الرفاهية والعنفوان، في تلك الأيام من عقد السبعينيات. وشرح لنا كيف أن أخذ الناس على الهوية وتجريم السوداني المختلف قد أوجدا سعارًا نفسيًّا وصل ببعض الناس إلى حد القتل بلا مسوغ ورمي البشر من أبناء الوطن طعامًا للهوام، وكذلك يشرح هذا الكتاب كيف أن تلك الأحداث هي من العلل المؤسسة لنمط التفكير الذي تعاظم لاحقًا، حتى طالت يده ما توثق من فنون فخرَّبته غير آسفة على ضياعه، ما يجعل مهمة استعادة أجواء التسامح والتثاقف التي أتت بها زمن وليم أندريا تبدو صعبة، لكنها وايم الشعب ليست مستحيلة، ليس على شعب عَبَّرَ مرارًا عن توقه إلى الديمقراطية والتعددية واحترام الآخر.

فهنيئًا لك قارئي العزيز بهذه السياحة الممتعة في منعرجات السبعينيات الزاخرة وبصحبة غزالها في أمجاده، وليم أندريا.

تقديم الطبعة الأولى
التشكيلي إبراهيم الصلحي

بسم الله الرحمن الرحيم

" يـا سمسـم القضـارف"، أغنيـة سـودانية معروفـة، كثـيرًا مـا كان يشـدو بهـا الشـباب مـن محـبي الغنـاء، يسـمرون بهـا في قعـدات الأنـس والطـرب، كانـوا بالبـلاد أم صـاروا نجعًـا في متاهـات الشـتات والاغـتراب، لكلماتهـا في النفـس وقـع خـاص، مـليء بالشـوق، عميـق الأثـر، كثـير آهـات الشـجن، كلمـا سـمعتها تُغـنَّى أو خطـرت لحظـة بذهـني، أعـادت إلى مخيلـتي مشـهد أول مـرة التقيـت فيهـا الشـابَ الأديـب حسـن الجـزولي في مـصر. كان ذلـك منـذ عـدة سـنوات مضـت، وقـد دعـاني يومهـا ابـن أخـت لي إلى سـهرة أقامهـا مـع رفـاق لـه بالدراسـة، احتفـاء منهـم بليلـة رأس سـنة ميلاديـة.

ليلتهـا وقـد غمرنـا سـحر القعـدة وحلـو الشـدو لمعـاني الكلمـات، كان حسـن الجـزولي يصـول ويجـول في نشـوة بالغـة وسـط الجمـع، مـرددًا مـرارًا وتكـرارًا الشـطرة الأولى مـن مطلـع تلـك الأغنيـة أول مـا يصـل المنشـدون إلى كلمـتي "الريـد الريـد"، وهـذا مـا أكسـب الأغنيـة بعـدًا خاصًّـا، معـبرًا عمـا كان يعتمـل في نفـس حسـن مـن حـب وارتبـاط وثيـق بـأرض وطنـه: ترابًـا

وناسًا وزرعًا وحبًّا. ذلك مشهد كلما مرَّ بخاطري، أعاد إلى ذاكرتي ليلة أُنس وشخص لا ينسى.

وحسن الجزولي من خلال ما قرأت له، أجده إنسانًا مشغولًا على الدوام بهموم الوطن، وباحترام أكيد للبشرية وصون حقوق الإنسان، مآثره وتراثه، أجده كلفًا بأمر الثقافة السودانية على وجه الخصوص، وبضرورة الحفاظ على أوعيتها، والعمل على تطويرها، والارتقاء بها إلى مرتبة عليا، بناءً لمجتمع سليم يقوم أساسًا على قاعدة ركينة من الحرية والعدالة الاجتماعية.

حدث قبل مدة وجيزة أن اتصل بي على الهاتف وأنا بأكسفورد طالبًا مني أن أكتب مقدمة لكتابه، فقلت له: "يا أبا الحسن، أنت تعلم أنني لست بكاتب"، فقال: "أنت تكتب رسمًا، فقل لي ما الفرق بين كلم مكتوب يقرأ، وآخر مرسوم بالبصر يستقرأ؟!" ومن ثَمَّ بعث لي عن طريق البريد الإلكتروني بنص مطبوع ببنط دقيق في سبع وعشرين ورقة فلسكاب، شدتني إليه صرخة ألم وتحسر وجدتها قراءة بين السطور، وتساؤل يطرحه المؤلف عما حلَّ لنا ولمجتمعنا بالسودان، منذ أن نالت البلاد استقلالها، ونحن نسير على خطى نظم ديمقراطية، مهتدين بقيم موروثنا وقيمنا الاجتماعية والثقافية. فما الذي حدث، ما الذي حدث لنا حتى صارت حصيلتنا مما بنينا هشيمًا تكاد تذروه الرياح، يقول وهو يحذر في سرده من سوء الخاتمة والضياع بالنسبة إلى الشباب

مـن الجنسـين، يحـذر ممـا هـو حاصـل تـراه العـين.

الكتـاب في مجملـه يتحـدث عمـا كان قائمًـا بالبـلاد وإلى حقبـة السـبعينيات مـن نشـاط ومكتسـبات ثقافيـة أشـار إليهـا بذكـر عـدد مـن أوعيتهـا المختلفـة بشـتى المجـالات العامـة والخاصة، وذلـك في محاولـة مبدئيـة لرصـد عـام للشـؤون الثقافيـة، وتوثيـق لهـا، وهـو أمـر يحتـاج إلى مزيـد مـن الجهـود المكثفـة عـلى الصعيديـن العـام منهـا والخـاص.

بهـذا الهـدف اسـتهلَّ النـص بمدخـل مؤلـم وضـع حـدًّا لحيـاة مبـدع غنـائي وريـاضي متميـز، جـرى اغتيالـه بمدينـة الخرطـوم عنـد منتصـف السـبعينيات مـن القـرن المـاضي، وفي إثـر محاولة لقلـب نظـام الحكـم في البـلاد، وبإجهاضهـا جرت حملة تمشـيط دقيـق لـدور الآمنـين بالعاصمـة، مـرة تلـو الأخـرى كمـا حـدث لأسرة الموسـيقار السـوداني وليـم أندريـا فائـز نصـار، والـذي اضطـر إلى إغـلاق بـاب بيتهـم في وجـه جنـد تمشـيط غاشـم، فأطلقـوا عليـه وابـلًا مـن نـار أودت بحياتـه في لحظـات، وهـو مـن وراء بـاب بيتـه لا يحمـل غـير جيتـار لا يضمـر بـه شرًّا لأحـد. وهـو موضـوع الكتـاب.

في رثائـه للفنـان المغـني أندريـا، يورد حسـن أشـهر أغانيـه رواجًا، جـاءت تحـت عنـوان "بـدور أرتـاح" صـاغ كلماتهـا صديـق لـه، تعـبر بوضـوح عمـا كان يختلـج في نفـوس أبنـاء جيلـه آنـذاك مـن ضيـق ونكـد ومضايقـات في حياتهـم، وقـد ثقـل قيـد البطالـة والعطالـة عـلى آمالهـم في حيـاة حـرة كريمـة، تقـول بعـض

مقاطعهـا:

ما قلنا كفاية مزاح

وخلي الليل يكون صباح

بدور ارتاح

***

بدور أنسى الدموع والهم

ولبسماتك أتبسم

ومن نظراتك أتعلم

أجمل كلام وأحلى نغم

***

بدور ارتاح واضمد في هواك جراح.

***

والحـق يقـال إن فَقْـدَ فنـان مبـدع، يعـد رمـزًا أصيـلًا ومؤثـرًا مـن رمـوز نهضتنـا الموسـيقية الحديثـة كان يُرجـى منـه ومـن أمثالـه الكثـير، يـراق دمـه هـدرًا وفي داره، ليعـد مأسـاة كـبرى ينـدى لهـا الجبـين. والحديـث ذو شـجون.

يسترسل المؤلف ويروي شيئًا عن نشأة فرق الجاز السودانية بدءًا من أواخر الخمسينيات في القرن الماضي، ودور الفنان التشكيلي والموسيقار المبدع شرحبيل أحمد وزوجته عازفة الجيتار، وفرقتهما الخماسية، وتأسيسه نادي الجاز (وذلك على ما أذكر إما أواخر الخمسينيات وإما في أوائل الستينيات) ومن ثَمَّ راج تكوين فرق الجاز بالعاصمة المثلثة وبمدن السودان الأخرى، خلال حقبة الستينيات والسبعينيات بالذات. كثر عددها وذكر أسمائها وأسماء العازفين فيها، وبانتشار تلك الفرق حدث تغيير جذري في محيط الأسرة السودانية، أتاح موجة من البهجة، مكنت المواطنين من قضاء أوقات ممتعة في الأفراح والأعياد والمناسبات العامة، تميزت كثيرًا عن الوضع التقليدي القديم لاستعراض فنون الغناء والطرب الذي كان يجري في الماضي في بيوت اللعبات أيام زمان، وقد جاءتهم فرق الجاز بالجديد المثير الذي لاق هوى وقبولًا فوريًّا لدى الناس كافة، وكأن المجتمع كان مهيَّئًا لتلك النقلة المغايرة لما سبق أن الفوه من أنماط الغناء والطرب. وهذا أمر مزاج، والمزاج لا يخضع إلى تحجر. وتلك هي سنة الحياة البشرية، رضيناها أم أبيناها.

إبراهيم الصلحي

٢٠١٣ / ١٠ /٢٢

تصدير
شرحبيل أحمد

السؤال المطروح هو كيف بفنان مرهف كوليم أندريا يُتعامل معه بمثل هذا التصرف غير المسؤول، كان من واجب الدولة والمسؤولين بشكل من الأشكال إحياء ذكرى المطرب المغدور وليم أندريا، حتى لو من ناحية نشاطه الرياضي المعروف، خاصة أنه أسهم في إحراز بطولات للسودان في منافسات إقليمية وعربية. الموسيقى في السودان مرت بظروف قاسية من حقبة ما أطُلق عليهم (الصعاليك) حتى ظهرت مجموعة أحمد المصطفى وعثمان حسين وخلافهم، فأصبحت الموسيقى محترمة ووُضِعَتْ في المكان اللائق بها، ولكنها يا للأسف تعرضت مرة أخرى لهجوم غير مبرر، وتم التعامل معها باعتبارها كمًّا مهملًا، خاصة في الآونة الأخيرة، وتجاهل المسؤولون تكريم وتخليد مطرب وموسيقي كوليم أندريا حتى الآن يعتبر واحدًا من مظاهر هذا الإهمال، نحن فرق الجاز كرَّمنا وليم ضمن تكريمنا عددًا من الراحلين من موسيقي الجاز عن طريق ترديد أغنياتهم، خاصة بالنسبة إلى ترديد أغنيات وليم.

أنا أعتبر الكتاب الذي بين أيدينا الآن يعد بمنزلة رد اعتبار لقامة فنية ورياضية كبيرة كقامة وليم أندريا، وتكريم

حقيقي لذكراه عندما تولى تعريف الأجيال الحالية واللاحقة بشخصية كان لا بدَّ من التعريف بها، وهذا يعد باب إضافي في الوفاء لمن يستحقون، ووضعهم في المكان اللائق بهم، وشكرًا يا حسن الجزولي.

مدخل صادم

ما بين الثالثة والرابعة من صبيحة يوم الجمعة، الموافق ٢ يوليو عام ١٩٧٦، استيقظ سكان العاصمة وحواجبهم معقودة دهشة، على أصوات رصاص كثيف، وتراشق بالنيران وإطلاق دانات وقذائف حربية، بدأ ذلك بصورة متقطعة في بداية الأمر، ولكنه سرعان ما تكثف، وهذا ما أدخل القلق في نفوس الناس، فهُرِعُوا إلى الشوارع لمعرفة ما يجري فيها، إلا أنهم سرعان ما ارتدوا إلى منازلهم، فأوصدوا أبوابها عليهم والذعر والهلع يحتويهم، هذا بعد أن تأكد لهم بأن ثمة محاولة لانقلاب عسكري، ضد نظام النميري يجري تنفيذها، وقد استمرت تلك المواجهات العسكرية أكثر من يوم، جرت فيها تصفيات واغتيالات بين الجانبين، وسُفِكَتْ فيها دماء غزيرة وعزيزة ومؤسفة بين أكثر من جانب! وتجسد الفزع حيًّا يمشي في شوارع العاصمة وأزقتها نهارًا جهارًا، شاهد فيها الناس جثث المهاجمين من التي حصدها رصاص القوات المسلحة ترقد على الشوارع، منتفخة وبعضها تنهشها الكلاب الجائعة، وتسري المعلومات وتتدفق متمددة على الطرقات، فتحملها

الألسنة وسرعة ذبذبات الشائعات وتأثيرها المباشر إعلاميًّا! فتصل إلى الناس وهم يتابعون معركة حربية على شوارع العاصمة وأزقتها الخلفية والجانبية، دون أن يكون لهم رأي أو موقف محدد منها، إذ تم إقصاؤهم بالكامل من قبل الفريقين المتصارعين، فقد سرت شائعة تأكدت صحتها بأن عناصر من المهاجمين بدأت هجومها بمطار الخرطوم، إذ من المفترض وصول طائرة النميري من خارج البلاد، في وقت معلوم من فجر الثاني من يوليو ١٩٧٦، ولكن قدر لتلك السفرية أن تصل قبل موعدها المعلوم ببضع دقائق، لينجو رئيس البلاد المستهدف ومرافقوه من المصير الذي كان ينتظرهم، وعلم أجهزة أمنه في الدقائق الأخيرة بمخطط المهاجمين ليعملوا على تهريب النميري خارج المطار قبل بضع دقائق فقط من بدء ساعة الهجوم المتفق عليها، والتي تم خُطِّطَ لها بحنكة حتى يؤتى مأكولها! كما سرت شائعة بعد دقائق معدودات، مفادها أن اللواء عبد الرحمن الشلالي قد قُتِلَ في المعركة المحتدمة وسط عاصمة البلاد! والشلالي هو قائد السلاح الطبي، والذي كان في طريقه فعلًا إلى مقر عمله بمستشفى السلاح الطبي بأم درمان، بعد أن علم ما يجري في العاصمة من مواجهات عسكرية، فقرر البكور لمباشرة مهامه وواجباته التي أملاها عليه ضميره المهني والوطني والطبي، في مثل هذه الظروف، فاعترض طريقه أحد مقاتلي الجبهة الوطنية، عند تخوم كبري أم درمان فأرغمه على الترجل هو وسائقه من العربة

الـتي تقلـه، وسـار بهمـا مبـاشرة نحـو أدنى منحـدر الكـبري عنـد ضفتـه اليمـنى ناحيـة مبـاني المستشـفى العسـكري نفسـه ومدينـة الفتيحـاب، ثـم لـم يتـوانَ في تفريـغ خزينـة بندقيتـه بدزينـة مـن الرصـاص الـذي انهمـر عـلى قائـد السـلاح الطـبي البريء، فجندلـه شـهيدًا ضمـن عـشرات الشـهداء مـن الجانبـين في تلـك الأيـام الكالحـة المعـدودة! وليـس آخـرًا اعتقـال أحـد المواطنـين ويعمـل جنديًّـا بالقـوات المسـلحة وبرتبـة رقيـب، وتعذيبـه تعذيبًـا بشـعًا مـن قبـل أجهـزة أمـن النمـيري لـورود معلومـات مفادهـا أن قائـد المحاولـة الانقلابيـة مطابـق لاسـم الرجـل، فيتضـح لاحقًـا أن اسـم قائـد العمليـة العسـكرية هـو الشـهيد العميـد محمـد نـور سـعد، وقـد اسـتخدم اسـمًا مسـتعارًا يتعامـل بـه وسـط مقاتـلي الجبهـة الوطنيـة في مناطـق الإعـداد والتدريـب طيلـة مرحلـة التحضـير للمحاولـة الانقلابيـة بمـكان مـا داخـل الأراضي الليبيـة، وكان سـوء حـظ الرقيـب الذي تـم عُـذِّبَ قـد تطابـق مـع اسـم التمويـه الـذي اختـاره قائـد العمليـة العسـكرية، حيـث يبـدو أن مقاتـلي الجبهـة الوطنيـة قـد أدلـوا ضمـن اعترافاتهـم في التحقيقـات الـتي أجريـت معهـم باسـم قائدهـم العسـكري، وعندمـا توفـرت المعلومـات للنظـام وأجهزتـه الأمنيـة، حـاول مضايـرة مـا أقـدم عليـه تجـاه الرقيـب الـبريء بتسـفيره خـارج البـلاد ليتلقـى علاجًـا مكثفًـا في كـبرى المستشـفيات الأوروبيـة! وسـط كل ذلـك كان مقاتلـو الجبهـة الوطنيـة يجاهـدون للوصـول إلى مبتغاهـم لتسـلم السـلطة الـتي لا يعلمـون شـيئًا عـن كنههـا أو مكانهـا بالضبـط أو

أيـن تقـع تحديـدًا، فرأتهـم الجماهـير يجوبـون الشـوارع عـدوًا ويسـألون المـارة عـن مكانهـا بلهفـة بالغـة، مـكان "السـلطة"! وكمثـال لهـذا كانـوا يبحثـون عـن وجهـة إذاعـة أم درمـان وأيـن تقـع، فيسـألون المـارة في الخرطـوم وأم درمـان عنهـا، ويبـدو أن إذاعـة أم درمـان تحديـدًا كانـت مبتغاهـم، ليبـدؤوا منهـا! ولكـن ناشـت سـهامهم، وبهـذا الخصـوص يبـدو أن مقامهـم كان في مقـام الحركـة الشـعبية لتحريـر السـودان فيمـا بعـد، مـع فـارق في التكتيـك والأهـداف، ففـي سـؤال وجهتـه صحيفـة فرنسـية للراحـل جـون قرنـق في مؤتمـر صحفـي، عـن مغـزى تكـرار مهاجمتـه للكرمـك، وتحريرهـا بـين آونـة وأخـرى، رد قائـلًا بسرعـة بديهتـه السـاخرة: "عندكـم في فرنسـا يبـدأ التعـارف مـع المـرأة بتقبيـل يدهـا، لذلـك كان لا بـدَّ لنـا أن نبـدأ مـن مـكان مـا!".

ومـع صبيحـة الأحـد الرابـع مـن يوليـو، اليـوم الثالـث للمحاولـة الانقلابيـة، الـتي دبرتهـا فصائـل الجبهـة الوطنيـة السـودانية مـن ليبيـا، لإسـقاط نظـام النمـيري، وقادهـا بجـرأة الشـهيد العميـد محمـد نـور سـعد. كانـت قـوات النظـام المايـوي، قـد اسـتعادت سـيطرتها تمامًـا عـلى الأوضـاع عسـكريًّا بالعاصمـة، وأمسـكت بدفـة توجيـه أحـداث تلـك الأيـام، بعـد أن باغتتهـا المحاولـة الانقلابيـة الشـجاعة لإسـقاط النظـام المايـوي منـذ صبيحـة تلـك الجمعـة.

إذن لـم تعـد ثمـة مقاومـة تذكـر مـع الرابـع مـن يوليـو في ذلـك

اليـوم، إلا مـن بعـض جيـوب لبقايـا الانقلابيـين "السـودانيين"! الذيـن تشـتتوا هنـا وهنـاك بمناطـق متفرقـة مـن العاصمـة، في حـين قـوات النظـام تطاردهـا وتضيـق الخنـاق عليهـا. ولأن الانقلابيـين قـد باغتـوا النظـام، فـإن النـاس قـد عاشـوا وسـط معلومـات متضاربـة وبهـا كثـير مـن الضبابيـة، فيمـا لـم يتسـنَّ لأي جهـة، معرفـة هويـة المهاجمـين للعاصمـة أو أهدافهـم، إذ لـم يتمكـن الانقلابيـون، مـن إذاعـة بيانهـم الأول لأسـباب فنيـة، حـتى تتعرَّفهـم الجماهـير! وكمـا يشـير عصـام الديـن ميرغـني أبـو غسـان في كتابـه (الجيـش السـوداني والسياسـة) قائـلًا: "فيمـا يقـارب الألـف ومائتي مقاتـل لـم ينـجُ سـوى تلـك المجموعـة الصغـيرة، وقتـل معظـم قـادة وأفـراد قـوات الجبهة الوطنيـة وهـم يقاتلـون في شـجاعة وبسـالة منقطعـة النظـير لتحقيـق هـدف كبـير لاسـتعادة الديمقراطيـة مهمـا كان نوعهـا – مرشـدة ومسـتدامة – قُتلـوا في معركـة كبـيرة توحـد ضدهـم فيها الشـعب وقواتـه المسـلحة نتيجـة لقـراءة سياسـية خاطئـة مـن قيـادة الجبهـة الوطنيـة ونتيجـة لإخـراج سـيئ للحركـة قـاد إلى رفـض قبولهـا" ومـضى موضحًـا أن إخفـاق الجبهـة الوطنيـة في تنظيـم العمليـة المسـاندة مـن تنظيـم عسـكري داخـل القـوات المسـلحة للمسـاعدة في إسـقاط النظام وتسـلم وتأمين السـلطة قـاد إلى أن "أصبحـت المواجهـة مـع القـوات المسـلحة وليسـت مواجهـة مـع النظـام المايـوي، اقتنعـت القـوات المسـلحة أنهـا المسـتهدفة، فخرجـت في توحـد وجماعيـة كاملـة للدفـاع عـن نفسـها، والدفـاع عـن شرفهـا مـن مغبـة الهزيمـة مـن غـزاة لا

تعـرف هويتهـم"!

وحــول "ارتــزاق وعمالــة" المقاتلــين المهاجمــين، فقــد أوضــح عصــام الديــن في كتابــه المشــار إليــه قائـلًا: "نهــض الجنــدي الســوداني لمحــو عــار الهزيمــة مــن قــوة مدنيــة غزته مباغتــة دون إنــذار أو تمهيــد ولا يعــرف هويتهــا، بــل يشــك في ســودانيتها، فــكل الدلائــل الواضحــة تؤكــد أنهــا قدمــت مــن خــارج حــدود الوطــن"، ومــا يعــزز مــن وجهــة نظــره هــو مــا أشــار إليــه د. منصــور خالــد في الكتــاب نفســه قائـلًا: "أمــا الجيــش الســوداني فقــد أفلــح في التقــاط أنفاســه منــذ اللحظــات الأولى لســببين؛ الأول هــو أنــه كان يدافــع عــن كرامتــه قبــل دفاعــه عــن النظــام. فــلا أحســب أن جيشًــا يقبــل الانهــزام أمــام قــوة مدنيــة مــن (الملكيــة) - وتلــك هــي أعــلى مراحــل التحقيــر عنــد العســكريين - تجيئــه في عقــر داره، وتعتمــد دون مواربــة عــلى غطــاء خارجــي يشــهد عليــه مــا كان يــردده راديــو طرابلــس عــن الدعــم الليــبي المرتقــب" هــذه إذن هــي الأســباب الــتي أدت إلى عزلــة الحركــة، بالشــائعات الــتي أصبحــت تتمــدد في الشــوارع والأزقــة، والــتي مفادهــا أن "مرتزقــة" مــن إثيوبيــا وإرتريا وتشــاد وأفارقــة آخرين، هــم ضمــن مــن هاجمــوا العاصمــة! ومــا حــدث هــو أن إعــلام مايــو وصمهــم بالمرتزقــة والعمــلاء، قصــدًا ليصطــاد أكــثر مــن عصفــور بحجــر واحــد، فقــد كان يســعى مــن جانــب لاســترداد كرامتــه "الأمنيــة" الــتي هزتهــا الخطــة الجريئــة والمحكمــة، الــتي فاجــأ بهــا الانقلابيــون نظــام مايــو وعــروا دعايتــه الفارغــة في عــدم قــدرة تحــرك أي قــوة لهــز أمــن نظــام مايــو ونميــري،

ومـن الجانـب الآخـر لـكي يسـتدر عطـف الجماهـير والشـارع عندمـا اكتشـف أن لا قواعـد معـه تسـنده، فدغـدغ الشـعور بفريـة الغـزو الأجنـبي مـن ليبيـا وخلافـه، ولقـد شـهد لهـم النـاس، وهـم يزحفـون لاحتـلال القيـادات العسـكرية، أنهـم كانـوا يوجهـون النـاس عـلى قارعـة الطريـق بالابتعـاد عـن أماكـن الـضرب خوفًـا عـلى حياتهـم، فلـم يمسُّـوا إنسـانًا بسـوء، وكانـوا عندمـا يذهبـون إلى الحوانيـت القريبـة لـشراء حاجاتهـم مـن بسـكويت وخـبز وتمـر وطحينـة وسـجائر وتنبـاك وخلافـه، كانـوا يدفعـون ثمـن مشـترياتهم عـدًّا نقـدًا، ولـم تُسـجَّل لهـم ولـو حالـة سـلب أو نهـب واحـدة، وفـوق كل هـذا وذاك شـهد النـاس لهـم أنهـم سـودانيون شـحمًا ولحمًـا.

ورغمًـا عـن هزيمـة نظـام مايـو وإيداعـه مزبلـة التاريـخ، فـإن المسـتغرب هـو تجاهـل قيـادات تلـك الأحـزاب لهـؤلاء الشـهداء المحسـوبين عليهـم حـتى الآن، فـلا نـكاد نـرى ثمـة حفـظ أي حقـوق وطنيـة أو حـتى شـخصية لهـم ولأسرهـم، ولـو في أبسـط المعـاني، في إطـار تمجيـد ذكـرى استشـهادهم ردًّا لاعتبارهـم! رحـم الله شـهداء ذلـك الحـادث مـن الجانبـين، لقـد راحـوا جميعًـا ضحايـا عُنجهيـة النظـام الديكتاتـوري الباطـش لمايـو والنمـيري، في محاولـة منـه للبقـاء متشـبثًا بالسـلطة وترسـانة الأسـلحة والقوانـين القمعيـة، رغمًـا عـن إرادة الشـعب وجميـع القـوى السياسـية الرافضـة لـه، والـتي انتـصرت عليـه في خاتمـة المطـاف، لأن إرادة الجماهـير لا غالـب لهـا!

وعليه فقد طوردت أعداد كبيرة، من هذه الجنسيات في أرجاء العاصمة، وتمت تصفية بعضهم، وضمنهم سودانيون لحمًا ودمًا، من مناطق "دارفور بغرب السودان وجبال النوبة" تحديدًا!

وهكذا سيتجه النظام منذ تلك اللحظة وأجهزته المتعددة، إضافة إلى آلة إعلامه المجبولة على ليِّ عنق الحقائق وطمسها - كما هي عادة كل عهد ديكتاتوري باطش وغاشم - وكما سبق وأشرنا إلى نعت أولئك السودانيين الشجعان بـ "المرتزقة قصدًا"! وذلك في محاولة للتقليل من شأن الإقدام والبطولة والجرأة، التي اتصفت بها كامل محاولاتهم الانقلابية، لإسقاط النظام الديكتاتوري المايوي!

***

في تلك الأيام كان منزل أسرة أندريا فائز نصار، المعلم السابق بالاستوائية جنوب السودان، قد تعرض للتفتيش أكثر من مرة، من قبل دوريات عسكرية ظلَّت تجوب الأحياء، التي تكتظ بها أعداد من الإثيوبيين والإرتريين، وضمنها منطقة الخرطوم غرب، المعروفة بوجود أعداد من الأقباط، وجاليات أخرى من المسيحيين كالأرمن والإغريق فيها.

في بداية الأمر بدى سبب تعرض المنزل، لعدة مداهمات، هو أن زوجة صاحب المنزل السيدة مريم زودي ترتبط

بعلاقات اجتماعية مع أولئك الإثيوبيين الذين كانوا يعيشون سواء بالعاصمة أم بالأقاليم بحكم صلة قرباها مع الإثيوبيين!

يقع ذلك المنزل في المربوع، الواقع شمال محطة السكة حديد، وشرق داخليات كلية الطب بالخرطوم غرب، وتحديدًا شرق شارع الحرية، جنوب مدرسة "فيلا جيلدا" للبنات والتابعة للكنيسة الكاثوليكية بشارع واحد وعشرين أكتوبر المتقاطع مع شارع الطيار جميل. وتعتبر منطقة الخرطوم غرب التي يقع فيها المنزل أحد أعرق وأقدم أحياء الخرطوم عموم، إذ تضم مباني تاريخية كمستشفى "سانت ميري" التخصصي للولادة "الراهبات"، وكانت بها سينما الوطنية غرب ومخازن السكة حديد الرئيسية والمغذية للعاصمة بمختلف أنواع البضائع والاحتياجات الأخرى، ويقع فيها شارع الحرية الشهير وجنينة السيد علي، كما كان بها أشلاق البوليس الغربي كأكبر تجمع لجنود الشرطة بالعاصمة، وكان يوجد بها أيضًا مركز شباب الخرطوم غرب، الذي أهل العديد من المطربين وأهل الغناء، أبرزهم الموسيقار يوسف الموصلي، وكانت تسكنه أسر عريقة، وأسماء لامعة وشهيرة في مختلف المجالات كاللاعب يوسف مرحوم، كما تضم المنطقة جزءًا من النشاط التجاري لعدد من الأقباط والجاليات المسيحية الأخرى كالأرمن والإغريق إضافة إلى التجار السودانيين. "كانت الأسرة تسكن منطقة الخرطوم اتنين، وهذه المنطقة تسكنها العديد من الأسر الأجنبية

والجاليات، والأغلبية كانت من الإثيوبيين والإرتريين الذين شردتهم نار الحرب منذ عهد الإمبراطور هيلاسيلاسي مرورًا بعد بمنقستو هيلاميريام، ثم إن هنالك العديد من رجال الأعمال الذين سكنوا هذه المنطقة".

كانت صاحبة ذلك المنزل سودانية ومعلمة بمدارس كمبوني للبنات. وكانت تربطها أصول قديمة بإثيوبيا كما سبق وأن أشرنا، فأصبح لها وضع مميز، في أوساط الجالية الإثيوبية في العاصمة، بحكم أنها قد حافظت على صلات الرحم مع تلك الجالية، وبحكم أنها اعتادت الإشراف على معيشة أولئك الطلاب من الإثيوبيين وغيرهم، لهذا السبب كان منزل أسرتها موضع شك، من قبل دوريات نظام مايو في تلك الأيام، كونه "منزل أحباش"!

كان ذلك في تلك الظروف نفسها التي نشطت فيها دوريات (مايو) في البحث، عمن اعتقدت أنهم ضمن القوات المهاجمة، التي انسحبت من المعارك بعد تأكدها من الهزيمة، إلى أماكن آمنة تلوذ بها في أنحاء العاصمة.

بعد هجوم صبيحة الجمعة وحسب هاشم بدر الدين في مساهمة له بموقع سودانيس أون لاين حول موضوع بعنوان (فرقة وليم أندريا) فقد أشار قائلًا: "كانت القيادة العامة قد طلبت من حاميات الأقاليم التوجه لإنقاذ العاصمة، فوصلتها ظهر يوم السبت ٣ يوليو قوات حامية شندي وساعدت في تأمين الإذاعة وحاميات أم درمان

وبحـري. ووصلـت كتيبـة الهجانـة في مسـاء اليـوم نفسـه، ودخلـت الخرطـوم وشـاركت في الكثـير مـن عمليـات التمشـيط، مـع انعـدام كامـل لأي تنسـيق مـع القـوات الأخـرى أو الرجـوع إلى قيـادة مركزيـة مشـتركة. كانـت شـاحنات المجـروس المحملـة بالجنـود تجـوب شـوارع العاصمـة تحـت قيـادة ضبـاط صغـار وفي كثـير مـن الأحيـان تحـت قيـادة ضبـاط صـف". وهـو مـا يناقـض إفـادات عصـام الديـن ميرغـني في كتابـه المشـار إليـه، إذ أفـاد بـأن قـوات مـن النجـدة وصلـت العاصمـة مـن مختلـف أقاليـم السـودان، وانضمـت إلى الوحـدات العسـكرية الـتي كانت تقـاوم الهجـوم فـ "اسـتطاعت الوحـدات العسـكرية تنظيـم قواتهـا وبـدأت في الانتشـار في العاصمـة الـتي فُـرِضَ فيهـا حظـر التجـوال" ومـا يجعلنـا نطمـئن أكـثر لهـذه الإفـادات في هـذه الجزئيـة، هـو أن مـن أفـاد بهـا هـو في الأسـاس ضابـط كبـير في المعـاش برتبـة عميـد ركـن، وبالطبـع فهـي رتبـة عسـكرية رفيعـة بالقـوات المسـلحة السـودانية.

في صبيحـة ذلـك اليـوم كانـت دوريـة عسـكرية، قـد داهمـت ذلـك المـنزل للمـرة الثالثـة، منـذ تفجـر الأحـداث قبـل يومـين مـن ذلـك التاريـخ، فاقتحمتـه وعاثـت تحطيمًـا في أثاثـه، الـذي كانـت ضمنـه صناديـق تحتـوي عـلى آلات موسـيقية جديـدة، وصلـت حديثًـا مـن خـارج البـلاد، فظنهـا الجنـود صناديـق تحتـوي عـلى أسـلحة وذخائـر! وعندمـا لـم تجـد الدوريـة العسـكرية شـيئًا يذكـر، غـادرت دون اعتـذار لأصحـاب المـنزل، الذيـن رُوِّعـوا لأكـثر مـن مـرة!

مـا إن هـمَّ أفـراد الأسرة في إعـادة ترتيـب محتويـات المـنزل، الـتي تركهـا جنـود النظـام المايـوي في حالـة مـن الفـوضى، وهـم يكتمـون غيظهـم مـن ذلـك التـصرف، حـتى طرقـت أسـماعهم خبطـات قويـة عـلى بـاب المـنزل.

وضـع ابـن الأسرة المتوسـط فنجـان قهوتـه الصباحيـة، الـذي اعتـاد تناولـه في مثـل هـذا الوقـت يوميًـا، ونهـض ليفتـح البـاب، ليتفاجـأ بدوريـة عسـكرية جديـدة، قـد جـاءت لتفتيـش المـنزل للمـرة الرابعـة عـلى التـوالي! هنـا استشـاط الفـتى غضبًـا، فصفـع بـاب المـنزل عـلى وجوههـم بشـدة، تعبـيرًا عـن ضيقـه مـن هذا التعـدي غـير المحتمـل، وإشـهارًا عفويًّـا لنفـاد صـبره وصـبر أفـراد أسرتـه، مِـن هـذا الـذي يجـري دون وجـه حـق، أو احـترام لحقـوق مشروعـة تتعلـق بخصوصيـات الأسر.

وهنـا يحـدث مـا لـم يكـن متوقعًـا أو في الحسـبان، حيـث يفتـح جنـود الدوريـة نـيران رشاشـاتهم، عـلى الفـتى عـبر البـاب الموصـد، لـيردوه قتيـلًا في الحـال، دون أي تقديـرات أو تـروي! فينتفـض جسـد الفـتى الغـض كمـا الذبيحـة لحظـة النحـر! ويتجنـدل جثـة هامـدة عـلى الأرض، وأفـراد أسرتـه يشـاهدون بمزيـج مـن الدهشـة والفـزع، ذلـك المشـهد المرعـب للضحيـة، وقـد سـبح جسـده في الدمـاء، الـتي انبجسـت حـارة لتمـلأ أرضية المـكان! وعندمـا يقتحـم الجنـود البـاب عنـوة ليدلفـوا داخـل المـنزل، يتصـدى لهـم الابـن الأكـبر في الأسرة، فيعتـدون عليـه هـو الآخـر بضربـة، "في رأسـه بواسـطة دبشـك" .

لقـد شـكَّل كل ذلـك تعديًـا وتجنيًـا واضحًـا، عـلى أسرة مسـالمة وآمنـة، لا سـيَّما وقـد كان الفـتى المغـدور - وهـو يهـم بفتـح بـاب المـنزل للجنـود - يحمـل جيتـارًا.. لا سـلاحًا!

في صبيحـة اليـوم التـالي للحـادث، انتـشر في العاصمـة خـبر حزيـن، هـزَّ الشـعور العـام في العاصمـة، وتـرك غصـة عـلى القلـوب، مفـاده أن "وليـم أندريـا" المطـرب ولاعـب كـرة السـلة الشـهير، لـدى الأوسـاط الفنيـة والرياضيـة قـد أُغتيـل!

ذلـك النبـأ المفـزع الـذي أصـاب النـاس بحـزن ووجـوم أكـثر مـن حقيقـي، حيـث زاد مـن همهـم وكربهـم الـذي ألـمَّ بهـم، منـذ تفجـر أحـداث الثـاني مـن يوليـو عـام ١٩٧٦!

حـول ملابسـات مصرعـه، يوضـح صديقـه وزميلـه كابـتن أحمـد خميـس لاعـب كـرة السـلة الشـهير، أن وليـم كان قـد خـرج في صبيحـة ذلـك اليـوم "لتوصيـل صديقـة وزميلـة السـموأل عـازف آلـة الترومبيـت، في فرقتـه الـتي كانـت تعـزف في كازينـو حمَّـاد، عـلى شـاطئ النيـل الأزرق (كازينـو عائـم)، فالغـزو حـدث ليلـة الخميـس ولـم يسـتطع السـموأل الذهـاب لأهلـه وبيتـه في الشـجرة نظـرًا إلى حظـر التجـول الـذي فُـرِضَ عـلى العاصمـة " .

ولكـن روايـة أخـرى توضـح أن وليـم وعنـد عودتـه إلى منزلـه، وجـد الدوريـة أمـام البـاب فطلـب قائدهـا منـه أن يفتـح لهـم بـاب المـنزل لتفتيشـه، فاسـتجاب لهـم وليـم، إذ فتَّشـوا للمـرة الثالثـة عـلى التـوالي، وهـي المـرة الـتي كان فيهـا الضابـط قائـد

مجموعة التفتيش العسكرية بشوشًا مع وليم ولطيفًا ومهذبًا، إذ اعتذر بلباقة لوليم وتجاذب معه أطراف الحديث، فدعاه وليم لتناول فنجان من القهوة معه، وذلك حسب الإفادة التي ذكرها للكاتب صديقة أحمد رستم وزميله في الفريق القومي لكرة السلة وصاحب كلمات أغنيته "بدور أرتاح". وأما في المرة الرابعة فقد حدث ما حدث، كما سبق وأن أُشير إليه. جرت محاولات لإنقاذ حياة الفتى، إذ نُقِلَ للمستشفى العسكري بأم درمان برفقة شقيقه الأكبر بوب، الذي اُعتدِي عليه هو الآخر، ولكن يتضح أن وليم كان قد فارق الحياة منذ أن أُطلِق الرصاص عليه نتيجة نزيفه المكثف!

وبموته الذي أحدث صدمة كبيرة، فقدت البلاد والأوساط الفنية والرياضية عامة، مطربًا ورياضيًّا مطبوعًا، إذ كان وليم شخصية معروفة، في أوساط العاصمة المثلثة، كمؤسس وعضو في فرقة جاز غنائية شهيرة. إضافة إلى شهرته كرياضي موهوب في ملاعب كرة السلة! وقد أفادت معلومات من بعض المقربين منه، بأن البلاغات التي أدت إلى اقتحام منزل الفقيد وتفتيشه أكثر من مرة، إنما كانت تستهدفه هو بشكل مباشر "إذ كانت له مواقف متوترة جدًّا، مع أحد ضباط جهاز الأمن الشباب، نتيجة مشاحنات واحتكاكات سابقة بأحد الأندية"! وقيل إن ذلك الضابط قد توعده أكثر من مرة!

تقول شريفة حسن كرار، إحدى معارف وليم، إنها تعرَّفته بالخرطوم، "عند دراستي في sister school وعند التحاقي بالكشافة البحرية كان وليم يدربنا كرة السلة التي تعلمتها منه، وكُوِّنَ فريق باسكيت للكشافة، وكان هو مدربنا الوحيد حتى مماته، لم أكن موجودة بالخرطوم وقتها، ولكن عرفت من أصدقائي أن الجنود أرادوا تفتيش منزله عنوة، فتصدى لهم ورفض إدخالهم المنزل فأطلقوا عليه النار". في حين يوضح محي الدين الخطيب أحد زملاء دراسته بعض الوقائع المتعلقة بنبأ رحيله في أوساط المدرسة قائلًا: "عندما فتحت المدرسة بعد أحداث (المرتزقة) كان وليم قد غُدِرَ به.. وفي طابور الصباح جاء أبونا - القسيس الإيطالي ناظر المدرسة واسمه أنتونيني - ونعى وليم في كلمات مقتضبة.. وكان وليم قد تخرَّج لتوه في كمبوني، إلا أن جزءًا من فرقته الموسيقية كان لا يزال يدرس بالمدرسة.. منهم حبشي أرمني – تمامًا مثل أندريا - اسمه أرام، ويبدو أنه أخبر أبونا أنتونيني بأن آل وليم يرفضون تسلم الجثمان. مصدر الاضطراب كان محاولة الاتصال بالأسرة وجمع معارفه من داخل الفصول، وكذلك الاتصال بالمسؤولين عن طريق أبنائهم بالمدرسة مثل ابن بهاء الدين أحمد إدريس وابن مأمون بحيري – وزراء في حقبة النميري – للتأثير في الأسرة، "ويبدو أن قساوسة كمبوني نجحوا في إقناع آل أندريا بتسلم الجثمان". يقول الخطيب: إن عمره وقتها كان في حدود الخمس عشرة سنة فقط، وكان يسكن منطقة بري، وقد عاصر وليم بالكمبوني،

ويذكـر أنـه كان يلعـب في فريـق الباسـكت بالمدرسـة "فريـق الـ "Hippo" في فسـحة الفطـور وأيـام السـبت مـن كل أسـبوع، وقد عـمَّ الحـزن والوجـوم والذهـول مجتمـع المدرسـة فـور فتحهـا بعـد أحـداث الانقـلاب مبـاشرة، وقـد نعـاه الأب "قرمينيـو" بكلمـات مختـصرة وصـلى عليـه في طابـور الصبـاح، وقـد حـاول القساوسـة تهدئـة أجـواء الحـزن وتخفيـف التوتـر الـذي سـاد بـين صفـوف الطـلاب.

غزال يمرح على جنبات العاصمة

ولـد الفـتى وليـم الملقـب بـ "الغـزال الأسـمر" يـوم ١٣ مايـو عـام ١٩٥١، والـده هـو أندريـا فائـز نصـار السـوداني الجنسـية، والمنتمي إلى جنـوب البـلاد، كان يمتلـك مجموعة من الشـاحنات لنقـل البضائـع مـن الـشرق والخرطـوم وبالعكـس، وذلـك حسـب إفـادة الموسـيقار نـادر السـوداني للكاتـب، إذ ولـد وليـم في منطقـة الخرطـوم غـرب، وتعلـم في مدارسـها الخاصـة، وكان لـه نشـاط في الكشـافة البحريـة، ومـن هنـا لمـع نجمـه كلاعـب لكـرة السـلة وعـازف جيتـار ومغـنٍّ تبـع فرقـة الكشـافة البحريـة قبـل انضمامـه لمجموعـة شاشـاتي الـتي كانـت مـن ألمـع فـرق الصفـوة الخرطوميـة وبعـد ذلـك كـون فرقتـه الخاصـة.

وجـدُّه لوالـده طبيـب مسـيحي لبنـاني الجنسـية، قَدِمَ للسـودان وعمـل طويـلًا بالجنـوب، فاقـترن بسـودانية مـن جنـوب السـودان، وأنجـب منهـا أولادًا وبناتًـا مـن ضمنهـم والـد وليـم، "وأمـه مولـودة في القضـارف ووالدتهـا مولـودة في المسـالمة. والدهـا مـن أصـول إثيوبيـة أتى إلى السـودان مـع المهـدي، لمحاربـة الاسـتعمار الإنجلـيزي المـصري واسـتقر بالقضـارف،

خالـه المرحـوم عـوض زودي، كان حكمـدار شرطـة بحـري، ومـدرب في كليـة الشرطـة" . ووليـم هـو الابـن المتوسـط لثلاثـة أشـقاء آخريـن، هـم جوزيـف الملقـب بـ "بـوب"، وعضـو عـازف معـه بفرقتـه الغنائيـة وهـو الأكـبر، وفائـز الموظـف بالسـفارة الأمريكيـة بالخرطـوم، ثـم حبيـب، وشـقيقاته؛ هـن آمـال الـتي رحلـت هـي الأخـرى قبـل عـدة سـنوات، وشـادية، ثـم "كاثرينـا إسـطمبولية" أختـه غـير الشـقيقة، وهـي شـقيقة حبيـب لطيـف إسـطمبولية الأخ غـير الشـقيق، وقـد كـنَّ لاعبـات ممـيزات بالفريـق القومـي السـوداني لكـرة السـلة للسـيدات أيضًـا. توضـح هـذه الجزئيـة إحـدى معـارف وليـم وأسرتـه، بـأن إسـطمبولية والـد كاثرينـا وحبيـب، وبعـد انفصـال زوجهـا الأول عنهـا، تقـدم للـزواج مـن المعلمـة "مريـم زودي قـبرو"، و"تزوجـت مريـم والـدة وليـم مـن لطيـف إسـطمبولية وأنجبـت منـه كاترينا وحبيـب لطيـف، وهـو الشـقيق الأكـبر للاعـبي النـادي الكاثوليـكي لكـرة السـلة سـليم وبشـير وأمينة إسـطمبولية" ، تضيف شـقيقته الوسـطى شـادية أندريـا موضحـة ضيـق الأسرة مـن النعـوت الـتي تطلـق بـين الحـين والآخـر عـلى وليـم وأسرتـه فيمـا يخـص انتمـاءه، سـواء كان ذلـك بحسـن نوايـا أم دونـه، مصححـة تلـك المعلومـات قائلـة للكاتـب: "وليـم شـقيقي سـوداني الجنسـية بالميـلاد، يعـني صـافٍ في سـودانيته، مولـود في السـودان والـده هـو أندريـا فايـز نصـار أيضًـا سـوداني جنـوبي، وأمـه مولـودة في القضـارف ووالدتهـا مولـودة في المسـالمة. والدهـا مـن أصـول إثيوبيـة، أتى إلى السـودان مـع المهـدى لمحاربـة الاسـتعمار

الإنجليزي المصري واستقر في السودان في القضارف، وخاله المرحوم عوض زودي كان حكمدار شرطة بحري ومدرب في كلية الشرطة. هذه حقيقة يجب معرفتها، فكل ما نسمع عن موضوع أو خبر عن المرحوم وليم مقترنًا بمعلومات ليست صحيحة، يضايقنا هذا الأمر كأسرة "!

وعوض زودي خال الراحل وليم أندريا هو والد الموسيقار الراحل ملاكو أيضًا، وحسب توثيق الكاتب حسن عوض أحمد بموقع منتديات الحصاحيصا فإن "عوض زودي قبرو" شقيق السيدة مريم زودي والدة الراحل وليم أندريا وأشقائه وشقيقاته قد درس المرحلة الابتدائية بالمدرسة الأميرية بالقضارف، ثم الإرسالية الأمريكية بأمدرمان، وعمل بسلاح الإشارة بقوة دفاع السودان، وقد شارك في الحرب العالمية الثانية في منطقة العلمين بليبيا، بعد الحرب أُختير ضابطًا مسؤولًا عن كلية الشرطة، وكان من دفعته السيد صموائيل أروب ومن تلاميذه: ١/ الفريق إبراهيم أحمد عبد الكريم ٢/ الفريق فيصل خليل ٣/ خليفة كرار مدير جهاز الأمن العام (في حقبة نظام مايو – الكاتب) ٤/ اللواء أحمد "..." ٥/ اللواء سيد أحمد الحسين. عمل الراحل عوض زودي بعدد من مراكز الشرطة (شندي، بورتسودان، جوبا والخرطوم بحري) ومنحه الزعيم إسماعيل الأزهري عندما كان رئيسًا لمجلس السيادة تقديرًا لكفاءته وغيرته في العمل وجليل خدماته، نيشان الخدمة الطويلة الممتازة في بوليس السودان كان ذلك بتاريخ ٣١/ديسمبر ١٩٦٨م ومع بداية النظام المايوي شمله

(الصالـح العـام!) وعُـيِّنَ ضابطًـا إداريًّـا بالحكومـات المحليـة، إذ تنقـل مـا بـين مجالـس القضـارف الثلاثـة (مدينـة القضـارف، ريفـي شـمال القضـارف وريفـي جنـوب القضـارف). كان مـن أشـهر لاعـبي فريـق الأهـلي عنـد إنشـائه عـام ١٩٤٨م، هاجـر الراحـل عـوض زودي إلى كنـدا وتـوفي عـام ٢٠٠٥م.

مـرت مـدة طويلـة لـم يلتـقِ وليـم خلالهـا والـدَه، الـذي تـرك البـلاد ليعيـش بالخـارج بعـد انفصالـه مـن الأم، وفقـط تسـنَّى لـه ذلـك في أثنـاء زيارتـه ضمـن المنتخـب الوطـني، إلى تنزانيـا ضمـن تصفيـات أفريقيـا عـام ١٩٧١ في بدايـات انضمامـه إلى المنتخـب السـوداني، إذ "التقـى وليـم والـده أول مـرة في تنزانيـا في (فنـدق كلمنجـارو – دار السـلام) لأن والـده تـرك السـودان وهـو مـا زال صغـيرًا" .

التحـق وليـم بمعهـد الموسـيقى والمسـرح، ولكـن المـوت الـذي داهمـه حـال بينـه وبـين تخرجـه، فكافـأه المعهـد بمنحـه درجـة البكالوريـوس الفخـري بُعيَـد وفاتـه، ضمـن دفعتـه المتخرجـة في العـام ١٩٧٦. ويضيـف للكاتـب صديقـه نـادر السـوداني موضحًـا "لقـد شـهدنا تخرجـه الصـوري ونحـن في سـنة أولى معهـد، وتسـلم شـهادة تخرجـه أخـوه بـوب" علمًـا بـأن الفنـان أبـو عـركي البخيـت، هاديـة طلسـم، أحمـد ربشـة ، إضافـة إلى عـدد كبـير مـن الموسـيقيين والمطربـين قـد زاملـوه سـنوات دراسـته بالمعهـد.

أسـس فرقـة جـاز "أب تايـد"، المعروفـة في أوسـاط مجتمعـات

الشـباب مـن الجنسـين، بالعاصمـة المثلثـة في تلـك الحقبـة، منتصـف سـبعينيات القـرن المـاضي. ولـه العديـد مـن الألحـان والأشـعار الغنائيـة الشـهيرة، وقـد راجـت أغنيتـه " كفايـة مـزاح" الـتي ألفهـا صديقـه رسـتم ولحنهـا وسـجلها للتلفزيـون، قبـل مـدة وجـيزة مـن رحيلـه المأسـاوي.. يقـول فيهـا:

(ما قلنا كفاية مزاح

وخلي الليل يكون صباح

بدور أرتاح

وأضمد في فؤادي جراح

وأفرح بيك زي يوم داك

أعوض بيك شبابي الراح

بدور أرتاح

بدور أنسي الدموع والهم

ولبسماتك أتبسم

ومن نظراتك أتعلم

أجمل كلام وأحلى نغم

تعيش يا حبيبي ولي تسلم

وعلى غيري إن شاء الله تحرم

ما قلنا كفاية مزاح وخلي الليل يكون صباح

بدور أرتاح

وأضمد بي هواك جراح).

حـول قصـة ومناسـبة وظـروف كتابـة الشـاعر هـذه الأغنيـة العاطفيـة، وكيفيـة تغـنِّي وليـم بهـا يوضح شـاعرها أحمد رسـتم للكاتـب قائـلًا: "بالرجـوع إلى قصـة قصيـدة كفايـة مـزاح والـتي كنـت قـد كتبتهـا - عـن الإنسـانة الـتي أحببتهـا دون النـاس ومـا زلـت، وهـي زوجـتي وأم أبنـائي وأعتبرهـا رفيقـة دربي وملهمـتي - كنـا أنـا ووليـم في الكويـت في أثنـاء مـدة الـدورة العربيـة نسـكن في غرفـة واحـدة، إذ توطـدت علاقـتي بـه في تلـك المـدة، وخـلال حديـثي معـه سـألته لمـاذا يغـني كل أغانيـه باللغـة الإنجليزيـة، فأجـاب بأنـه لـم يجـد النـص العـربي المناسـب ليغنيـه. فقلـت لـه سـأعطيك أحـدث قصائـدي لتحـاول فيهـا، وفعـلًا وبعـد أن عـرف أنـني أكتـب بعـض الشـعر قـرأت عليـه القصيـدة وأذكـر أنـه أُعجِـب بهـا كثـيرًا، وكتبهـا بخطـه في مذكـرة كان يحملهـا معـه طـوال الوقـت. ومـرت الأيـام، وفي السـنة التاليـة أي عـام ١٩٧٦م دخلنـا معسـكر المنتخـب السـوداني لكـرة السـلة في داخليـات كليـة الطـب بالخرطـوم، وكالمعتـاد سـكنَّا أنـا ووليـم في غرفـة واحـدة، وفي أحـد الأيـام كان معنـا الأخـان سـعود وسـليمان عـلي، أخـرج وليـم القصيـدة وكان معـه دائمـا جيتـاره

الخاص وبدأ في تلحين القصيدة، وكان الأخان وراءه بالإيقاع على طاولة الدراسة. ثم يقول "وفي تلك اللحظات ولدت أغنية كفاية مزاح، وفعلًا في المساء ذهب وليم إلى منزله ووقع اللحن مع الفرقة وأخرج إلى النور أغنية تغنَّى بها الكثيرون، وأذكر كذلك أول مرة غنى تلك الأغنية في حفل رأس السنة للعام الجديد ٧٦ بالنادي القبطي، وما زلت أذكر تسللنا من المعسكر لحضور ذلك الحفل الذي دعانا إليه وليم، كما أذكر أن الجمهور المحتفل طالب وليم بالاستماع للأغنية أكثر من مرة في تلك الأمسية، وفي اعتقادي أن سبب نجاح الأغنية هو اللحن المميز وحب وليم لكلماتها البسيطة. وطلب مني وليم قصائد أخرى فقدمت له الدفتر الذي يحوي كل القصائد التي كتبتها وقلت له خذ ما تريد منه - ولم أحصل على الدفتر حتى الآن، ولا أعلم أين هو أو من يحتفظ به - إلا أن القدر لم يمهله طويلًا فرحل عنا مقتولًا، كان رمزًا وقدوة لكل لاعب وإداري في اتحاد كرة السلة السوداني، وأعلم كل العلم السبب في اغتياله، لكن أحتفظ بهذا السبب لنفسي لأسباب حساسة! وأعلم علم اليقين أن هناك الكثير ممن يعرف القصة. وقد كتبت مرثية لا أستحضر منها سوى مطلعها الذي يقول:

ذهبت مفارق الدنيا ذهبت ونحن لا نعلم

رثائي فيك يا وليم سأرويه دموعًا ودم

وبمناسبة أغنية "كفاية مزاح" فقد غناها وليم أندريا في حفل إقامة التلفزيون السوداني للمنتخب، بمناسبة فوزه ببطولة الدورة العربية، وهي أكيد موجودة في أرشيف التلفزيون. وحاليًّا طلبت مني الدكتورة منال بدر الدين الإذن بغناء القصيدة، وسمحت لها وهي فعلًا تغنيها باللحن نفسه وبطريقة وليم نفسها، وهي مسجلة لدى بعض الفضائيات السودانية" .

هذا إلى جانب بعض أغنياته التي ألَّفها وأداها بعد تجربته مع قصيدة رستم، والتي شجعته للتغني باللغة العربية كـ "حبيبي قال كلام" و"أسير ساير" و"وصيت عليك" و"يا غريب عن ديارك".

وحول أغنية "كفاية مزاح" يعود صديقه كابتن خميس أيضًا بذاكرته إلى أمسية ٣١ من شهر ديسمبر عام ١٩٧٥، والتي دعا فيها وليم زملاءه لاعبي كرة السلة للسهر معه على أنغام فرقته الموسيقية، احتفالًا بليلة رأس السنة "وقد جهز أغنية من كلمات الأخ اللاعب الدولي أحمد محمد علي رستم والحان الغزال الأسمر، وتمت البروفات عندما كان في المعسكر بداخلية حسيب (كلية الطب جامعة الخرطوم)، والأغنية (كفاية مزاح) وهي أول أغنية باللغة العربية يتغنى بها الراحل، وفي ليلة يوم ١٩٧٥/١٢/٣١ دعانا الراحل إلى حضور ليلة رأس السنة بالنادي الكاثوليكي، وكانت الطاولة محجوزة باسم لاعبي المنتخب الوطني، وغنى الراحل في تلك الليلة

كما لم يغنِّ من قبل وتوجد أغنية أخرى باللغة العربية من كلمات اللاعب الدولي محمد مقبول الباشا (سعودي) ولكن نظرًا إلى وفاة الراحل لم ترَ النور، أتمنى أن هاتين الأغنيتين تكونان موجودتين لدى أخويه جوزيف وفايز، أو أحد أفراد الأسرة."

تجدر الإشارة إلى أن وليم أندريا وبعد تجربته مع صديقه الشاعر رستم في "كفاية مزاح"، وعلى خطى الفنان شرحبيل أحمد، بدأ يصوغ بعض كلمات أغنياته بدارجة سودانية خالصة، وهذا ما يضفي عليها لمسات من الدفْء في المعاني والأداء! وكان له أيضًا شأن مع بعض الأغنيات الأوروبية الشهيرة، إذ كان يغني للمطرب (George Care) أغنية (Rock your Baby) ولـ (Carl Douglas) أغنيته (Kung Fu Fighting) وغيرهما، تلك الأغنيات التي تصنف حاليًّا، بأنها ضمن مجموعات العصر الذهبي، لأغاني الجاز في أوروبا. وجدير بالذكر الإشارة إلى أن الراحل "أول من استجلب جهاز الساوند سيستم بالسودان. وفرقة وليم أندريا تعد الفرقة الرائدة في هذا المجال، وكان ذلك ضمن ما كان يعمل ويحلم به الراحل من (تحديث) للأغنية السودانية بالإفادة من الأنماط الغنائية على مستوى العالم" . وفي إفادته للكاتب يشير الفنان والموسيقار أبو عركي البخيت أنه زامل الراحل وليم أندريا بمعهد الموسيقى والمسرح سنوات الدراسة هناك، وأنه صادقه لدماثة أخلاقه، كان جادًّا في موهبته التي صقلها، وكانت، وبتشجيع منا، تحول ليؤدي أغنيات سودانية بعد أن

بـرع في تأديـة الأغنيـات ذات اللونيـة الغربيـة باللغـة الإنجليزيـة "أقـرب الأصدقـاء إليـه كان حسـن عثمـان ود الديـوم، ولكنـه رحـل أيضًـا، وفـاة وليـم خسـارة كبـيرة بـكل المقاييـس".

كمـا يضيـف الموسـيقار والفنـان يوسـف الموصـلي للكاتـب في إفـادة قائـلًا إنـه تعـرَّف أصـلًا وليـم أندريـا كلاعـب عظيـم لكـرة السـلة بالفريـق القومـي السـوداني، ثـم كمغـنٍّ وكمؤلـف موسـيقي، ثـم كزميـل في الدفعـة الـتي تـلي الدفعـة الدارسـة وقتهـا بمعهـد الموسـيقى والمـسرح "زميـلًا لآمـال طلسـم وأحمـد شـمو، والمرحـوم صـلاح أبـا يزيـد، ونظـرًا إلى أن علاقتـه بالراحـل أحمـد ربشـة كانـت متينـة - وأحمـد مـن أعـز أصدقـائي - فقـد توثقـت علاقـتي معـه". ومـضى الموصـلي موضحًـا أن وليـم وبمثـل مـا أُعتـبر مـن أعظـم اللاعبـين الذيـن مـروا عـلى بلادنـا، فهـو أيضًـا مـن أحسـن الموسـيقيين الذيـن مـروا عليها".. "لقـد اسـتقبلنا نبـأ رحيلـه بطريقـة حزينـة جـدًّا، فقـد فقـدت البـلاد حينهـا شـخصية عظيمـة لا تعـوض البتـة. ومـا يُؤسَـف لـه أنـه لـم تبـادر أي جهـة لا رسـمية أو أهليـه بـرد الاعتبـار لـه عـن طريـق تكريمـه أو إقامـة أي شـكل مـن أشـكال تخليـده، وهكـذا حـال السـودان، فـلا كرامـة لنـبي في وطنـه. وهـي مسـألة كانـت ولا تـزال مخجلـة والله.

دخـل وليـم عالـم الموسـيقى بفرقـة (لـورد) الوليـدة، والـتي كونهـا مـع بعـض أنـداده وتجربتـه الموسـيقية لـم تنضـج بعـد، ثـم وفيمـا بعـد أسـس فرقـة (أب تايـد) الـتي ضمـت شـقيقه

جوزيف المعروف بـ (بوب) في أواخر ستينيات القرن الماضي. وهناك بعض الخلط الذي لازم اسم الفرقة الموسيقية التي أسسها وليم، إذ إن اسم وليم أندريا لم يطلق على الفرقة إلا بعد وفاته، فقد كانت تحمل دومًا اسم فرقة "أب تايد" أو "تايدس"!

يوضح للكاتب يوسف عبد المنعم عازف الجيتار الشهير حقبة السبعينيات، ومؤسس فرقتي القولدن فينقرز والكونكوردس، أنه التقى بوليم في أثناء الدراسة في كمبوني "فقد كنا في المدرسة نفسها وأبدى رغبته في تعلم آلة الجيتار، وقد كنت أشجعه ليبدأ في أقرب فرصة وقد كان. أهم ما كان يتوج صداقتي مع وليم أنه كان في قمة الاحترام في علاقته معي ومع الآخرين، وكنت أبادله الشعور نفسه" .

وفي إفادته المطولة للكاتب أضاء المطرب البارز والفنان التشكيلي شرحبيل أحمد كثيرًا من الجوانب الهامة في مسيرة وليم، إذ أشار إلى أن معرفته بالمطرب الراحل كانت عن طريق والدته مريم زودي، والتي تعود صلة معرفته بها إلى عضويتها في نادي الجاز الذي أسسه شرحبيل وبعض مريدي الجاز في منتصف ستينيات القرن الماضي ما بين عامي ١٩٦٥ - ١٩٦٦ باسم (ريزم كلوب)، وأوضح أن فكرة النادي كانت مبنية من خلال تطور الفرقة الموسيقية والتفاف عدد من معجبي أغاني الجاز بها، وهي تهدف لجمع كل محبي موسيقى الجاز والرقص بجميع أنواعه في تلك السنوات

ليأسسوا فاعليات أنشطة موسيقية مشتركة خلال "سوسايتي" جيدة من بعض الأسر بالعاصمة، "وفعلًا انضمَّ عدد من الناس ديل مع أسرهم وأذكر منهم ناس شفيق شوقي (الله يرحمه) وفريد طوبيا وإبراهيم الصلحي اللي كان بشارك برفقة أسرته وابنته الكبرى سارة وقد كانت طفلة وأصبحت رسامة وعملت معاي فيما بعد بدار النشر التربوي والصحفي الراحل الوليد إبراهيم، عثمان قطاني وعمنا جاد الله جبارة المصور والسينمائي، يس أحمد يس، وعبد العزيز أحمد فرح الدبلوماسي بجنيف حاليًّا ومصطفى أبو عكر وناس من الشاكلة دي، أو ناس متزوجين أجنبيات وفيهم الحس بتاع الرقيص وحب الموسيقى، وبعض الناس اللي بتقدر تقول عليهم ناس مودرن وبحبو الحياة العصرية، وفعلًا اتشكل القروب ده بعد ما حصرنا الأسماء وقدمنا دعوات مكتوبة للعضوية لحضور أول اجتماع للقروب، والاجتماع ده بتذكر كان عندنا في البيت ودشنَّا نشاط القروب بأول حفل راقص وكان في بيت أستاذ الصلحي. وحفلة تانية كانت في بيت عثمان قطاني، وهكذا كانت الحفلات بتتعمل في بيوت الأعضاء وكانت تتم على نمط الجلسات أو سهرات راقصة، حتى تطور النادي بعدما جمعتنا الظروف بالسيدة مريم زودي والدة وليم أندريا، وكانت هي وزوجها من الناس العندهم حب للموسيقى والرقص والسهر، والنادي ما كان عنده مقر ثابت وكانت الحفلات تتم في بيوت الأعضاء يعني مرة عندي ومرة عند الصلحي ومرة عند عثمان قطاني

في المقـرن عنـد نواحـي الغابـة زي مـا وضحـت وهكـذا، أهـا في بيـت مريـم والـدة وليـم أندريـا اتعملـت أكـتر مـن حفلـة غنائيـة عندهـا وكانـت تسـتقبل أنشـطة النـادي هـي وزوجهـا بـكل أريحيـة، بعدهـا تطـور النـادي ووقـف عـلى حيلـه واشـتهر فعملنـا صلـة بصـالات الرقـص والأنديـة والفنـادق الكبـيرة زي فنـدق صحـاري والفنـدق الكبـير والإكسليسـيور وأصبحنـا نقيـم حفلاتنـا في السـطوح وفي الصـالات الواسـعة.

أنـا أصـلًا تعرَّفـت بالسـيدة مريـم زودي والـدة وليـم أندريـا في مدرسـة تيلـدا فيـلا إسـكول، ودي كانـت جـوار منزلهـم بوسـط الخرطـوم، أنـا كنـت بسـوق أولادي نـاس شريـف ديـل وكانـوا صغـار، للمدرسـة دي، فأصبحنـا نذهـب معهـم مـن المدرسـة للبيـت عندهـم نـشرب مويـا وشـاي، وكان شريـف في عمـر وليـم تقريبًـا، فأصبحـت كتـير مـن مناسـباتهم العائليـة يدعوننـا لهـا خـلاف علاقـات النـادي، وكانـت الدعـوات الاجتماعيـة زي حفـلات العشـاء والموسـيقى والسـهر منتـشرة في أجـواء عاصمـة السـتينيات والسـبعينيات، خـلال أنشـطة النـادي الموسـيقية بمـنزل والـدة وليـم، أذكـر أن وليـم كان صغيرًا وكان هـو وإخوته يحـضرون هـذه الحفـلات الموسـيقية فيبـدو إنـه تأثـر لاحقًـا بالأجـواء ديـك ودا طبعًـا غـيَّر نشـاطه التـاني في مجـال الرياضـة وكـرة السـلة، فأصبـح يسـتمتع بالموسـيقى ويعيـش أجواءهـا، في السـبعينيات اشـتهر ودخـل في أجـواء موسـيقى الجـاز.

فيمـا بعـد اشـتهر وليـم وكنـت ألتقيـه كثـيرًا في الحفـلات

العامـة، وكان دائـم السـؤال عـن رأيي في أداء فرقتـه، فكنـت أثـني عليـه وأشـجعه ودا كنـت بنقلـه لوالدتـه حـول إنـه وليـم نجـح في مجـال الموسـيقى والجـاز، وفي تكويـن فرقـة موسـيقية ممتـازة. وكانـت مريـم تؤكـد لي إنـه تأثـر بنـا مـن صغـره وأحـب الغنـاء والموسـيقى.

أذكـر قبـل اغتيالـه بمـدة قصـيرة أننـا كنا نعد منافسـة لموسـيقى الجـاز، وتبنـت الفكـرة إدارة فنـدق الميريديان، وأذكـر إنهم رتبوا لينـا أول اجتمـاع تـداولي للفكـرة دي وقدمـوا لينـا عشـاء فاخـر وحـضرت الاجتمـاع دا كل فـرق الجـاز بالعاصمـة، وكان وليـم مـن بينهـم وكان أكـتر حماسًـا للفكـرة، تـم الاتفـاق عـلى تنظيـم مهرجـان لموسـيقى الجـاز تشـارك فيهـا كل الفـرق الموسـيقية، كبيرهـا وصغيرهـا، فأثـارت الفكـرة حماسًـا كبـيرًا وبـدأ إعـداد لتنظيـم المهرجـان التنافـسي دا وبدأنـا في الإعـداد لتنظيـم المهرجـان التنافـسي وبدينـا في تكويـن اللجـان المتخصصـة، ولـو الفكـرة اتنفـذت كانـت سـتقود لأول مهرجـان موسـيقي للجـاز في السـودان! وللأسـف ماتـت الفكـرة ومـن تسـبب في موتهـا هـو وليـم أندريـا بنفسـه عندمـا سـقط صريعًـا برصـاص الجنـود في اليـوم المشـؤوم داك! فعـمَّ الحـزن والأسى جميـع أعضـاء فـرق الجـاز بالطبـع، وماتـت معـه الفكـرة، رغـم أنـه فيمـا بعـد تـم تنفيـذ الفكـرة.

السـؤال المطـروح هـو كيـف بفنـان مرهـف كوليـم أندريـا يتـم التعامـل معـه بمثـل هـذا التـصرف غـير المسـؤول، كان

مـن واجـب الدولـة والمسـؤولين في كل العهـود الـتي مـرت بعـد اغتيـال وليـم إحيـاء ذكـرى المطـرب المغـدور بشـكل مـن الأشـكال، حـتى لـو مـن ناحيـة نشـاطه الريـاضي المعـروف، خاصـة أنـه أسـهم في إحـراز بطـولات للسـودان في منافسـات إقليميـة وعربيـة. الموسـيقى في السـودان مـرت بظـروف قاسـية مـن حقبـة مـا أُطلـق عليهـم (الصعاليـك) لحـد مـا ظهـرت مجموعـة أحمـد المصطفـى وعثمـان حسـين وخلافهـم، فأصبحـت الموسـيقى محترمـة وتـم وضعهـا في المـكان اللائـق بهـا، ولكنهـا يـا للأسـف تعرضـت مـرة أخـرى لهجـوم غـير مـبرر، وتـم التعامـل معهـا باعتبارهـا كـم مهمـل، خاصـة في الفـترة الأخـيرة، وتجاهـل المسـؤولين تكريـم وتخليـد مطـرب وموسـيقي كوليـم أندريـا حـتى الآن يعتـبر واحـد مـن مظاهـر هـذا الإهمـال، نحـن كفـرق للجـاز كرَّمنـا وليـم ضمـن تكريمنـا لعـدد مـن الراحلـين مـن موسـيقيي الجـاز عـن طريـق ترديـد أغنياتهـم، خاصـة بالنسـبة إلى ترديـد أغنيـات وليـم.

أنـا بعتـبر الكتـاب الـذي بـين أيدينـا الآن يعـد بمنزلـة رد اعتبـار لقامـة فنيـة ورياضيـة كبـيرة كقامـة وليـم أندريـا وتكريـم حقيقـي لذكـراه عندمـا تـولى تعريـف الأجيـال الحاليـة واللاحقـة بشـخصية كان لابـدَّ مـن التعريـف بهـا، وهـذا يعـد بابًـا إضافيًّـا في الوفـاء لمـن يسـتحقون ووضعهـم في المـكان اللائـق بهـم، فشـكرًا يـا حسـن الجـزولي".

عاصمة مموسقة وترويح إبداعي

هكـذا بـرزت ظاهـرة وليـم أندريـا وفرقتـه الموسـيقية، في سـبعينيات القـرن المـاضي، وفي السـياق نفسـه شـهد منتصـف تلـك السـبعينيات أيضًـا، بـروز ظاهـرة فـرق الجـاز الموسـيقية والغنائيـة، صحيـح أن المطـرب شرحبيـل أحمـد، قـد سـبق بفرقتـه وزوجتـه الفنانـة زكيـة أبـو القاسـم العازفـة معـه، ومنـذ خمسـينيات القـرن المـاضي تلـك الفـرق الغنائيـة كافـة، إذ بـدأ وميـض الظاهـرة يتـلألأ في سـماوات أمـاسي العاصمـة منـذ منتصـف السـتينيات، باللبنـات الأولى الـتي وضعهـا في الخمسـينيات المبـدع الموهـوب المرحـوم عثمـان ألمـو، الـذي يعتـبر رائـدًا لهـذه اللونيـة الغنائيـة وحـادي ركبهـا، وأول مـن عـزف عـلى آلـة الجيتـار بالسـودان! يضيـف للكاتـب نـادر السـوداني موضحًـا: "الفنـان الراحـل عثمـان ألمـو مـن الـرواد الذيـن وضعـوا بصماتهم على الموسـيقى السـودانية والعسـكرية بصفـة خاصـة، وهـو مـن أضـاء الطريـق بمؤلفاتـه الموسـيقية لكثيريـن مـن جيلـه، ويضيـف جـو سـاترياني أحـد العازفـين قائـلًا إنـه سـمع الفنـان الراحـل محمـد وردي في حلقـة تلفزيونيـة قـال: "في الزمـن داك جانـا عثمـان ألمـو فـك فينـا سـتايل الـروك وكلنـا

أدخلناه في ألحاننا، وضرب مثل بأغنية أخادع نفسي في حبك وأمنيها"! مضيفًا بأن عثمان ألمو "كان من مؤسسي أوركسترا التلفزيون مع الراحل علاء الدين حمزة".

كذلك "الموسيقار (أحمد مرجان) والموسيقار (بدر الدين عوض) والد الفنانة منال بدر الدين، والذي أسس أول مدرسة للموسيقى بالسودان في بحري بنادي الكوكب". علمًا بأن مدينة الخرطوم بحري أسهمت بقدر وافر من الفرق الموسيقية الناجحة والشهيرة كفرقة أضواء بحري وفرقة العناكب وقد هاجر مؤسسوها إلى القاهرة، وفرقة الكنار، وقد تأسست بنادي الأمير البحراوي.

ثم إن لموسيقى الجيش والبوليس أثرها الواضح أيضًا، فشكل تأسيس وظهور تلك الفرق، حدث ماثل للعيان في المشهد الفني لمجتمع العاصمة، في تلك الفترة، ولكن ما إن حلت بداية السبعينيات، حتى أصبحت للظاهرة تأثيراتها الواسعة في أوساط جيل، رغم أنه تشرَّب عبق الستينيات، ولكنه بدأ يشكل إيقاعه الخاص به، إذ ذاع صيت فرق جاز موسيقية متنوعة بأسماء متعددة، كالعقارب وجاز الديوم، وفرقة جاز أم درمان التي أسسها دكتور علي عثمان، وهو من رواد فرق الجاز ويجيد العزف على الجيتار، ويعمل حاليًّا أستاذًا للموسيقى، وفرقة جاز العباسية أم درمان، وفرقة ديفيد قروب، وقد سُمِّيَتْ لاحقًا فرقة السودانيين، وقد أسسها درامر، إضافة إلى جاز العاصمة وهارامبي، جاز

عطبرة والمدرعات وجاز الرجاف، الصول ميوزيك وأم درمان والأفارقة، فرقة الساوندرس والويفز وديفيد قروب والأنقيلز وسلاح الموسيقى، إضافة إلى فرق كالبلوستارز والقولدن فينقرز بقيادة سمير إسكندر، والكونكورد الذين كان يعزف معهم بالنادي الإيطالي فيكتور جارلس وهو شقيق المغنية تينا جارلس من ناحية الوالد الذي كان إنجليزيًّا ووالدتها تركية، أما فيكتور فكانت والدته شامية الأصل! كما ضمت الفرقة الموهوب عزت طالب جامعة الخرطوم وقتها، والذي كان من أندر العازفين الذين يعزفون أكثر من آلة موسيقية! وكانت فرقة كمال كيلا حاضرة أيضًا، كما بدأ نجم الجيلاني الواثق في الظهور رويدًا! ويؤرخ فنان الجاز نادر السوداني لفرقة السودانيين موضحًا "فرقة السودانيين هي فرقة ديفيد قروب، بعد ما اختلفنا ماديًّا مع المرحوم أحمد داؤود حمد له الرحمة، انتقلت الفرقة بتكوينها نفسه مضافًا إليها عازف الدرامز أحمد حامد وعازف الأورغ إبراهيم محمد الحسن الذي كان دفعتنا بالمعهد أنا وممدوح طاهر فريد، وكانت الفرقة باسم الكريسيدز وتحولت لفرقة السودانيين بعد ذلك، الراحل أحمد داؤود كان عازف الدرامز الأول بالسودان وكان أحد مؤسسي فرقة الفنان شرحبيل أحمد". ويوضح ممدوح الطاهر فريد للكاتب أن الفرقة وجدت دعمًا ماديًّا ومعنويًّا من رجل الأعمال محمد عبد الرحمن سعد "حلويات سعد" والذي وفر كل احتياجات الفرقة من صالة وأدوات لتصبح مكتملة فنيًّا.

هـذا فضـلًا عـن عـشرات فـرق موسـيقى الجـاز الـتي عرفهـا جنـوب السـودان والمتأثـرة بالموسـيقى السـواحيلية، والـتي يطلـق عليهـا شـباب عاصمـة السـبعينيات "موسـيقى الجالـوا"! خاصـة بمدينـة جوبـا. وإشـارة إلى "جنـوب الوطـن" فهـا هـو نـادر السـوداني يشـير إلى عـازف سـوداني جنـوبي ماهـر هـو "كاميليـو مـن جنوبنـا المبتـور وهـو مـن أعظـم عـازفي الجيتـار في السـودان، كان لـه دور كبـير في بداياتـه مـع فرقـة العقـارب ومـع الفنـان كمـال كيـلا، سـافر مـع فرقـة سـامي الصلحـي لإنجلـترا لتسـجيل ألبـوم موسـيقي ضمـن مجموعـة باسـم الهفـي دكـس وكانـت المجموعـة تتكـون مـن سـامي الصلحـي بـاص جيتـار كاميليـو جيتـار صـلاح دهـب تينـور سـاكس سـيف عبـد الله سـعيد درامـس وديفيـد بيانـو، كانـت مجموعـة متميزة كما كانـت لـه لمسـاته مـع الراحـل المقيـم الفنـان محمـد وردي والعديـد مـن الفنانـين السـودانيين، فهـو فنـان متكامـل يفهـم الكثـير في الهارمـوني ويعـرف الكثـير عـن جيتـاره ولـه صـوت متميـز وإحسـاس خـاص بـه لا يمكـن أن تتـوه أذنـك عنـد مـا تسـمع فكـرة الموسـيقى". ثـم إن المرحـوم طـارق لخـص مشـكلات الوطـن في أغنيتـه الرائعـة المـاضي بـل كان لـه حـس استباقي عـالٍ للأحـداث، خاصـة في مقطـع (فصلـوا الجنـوب مـن الشـمال وعملـوا لينـا جـواز سـفر).

علمًـا أن هنـاك آراء موسـيقية متخصصـة تشـير في دراسـات عـن أثـر الموسـيقى الأوروبيـة عـلى الموسـيقى السـودانية، بـأن السـودان لـم يعـرف فرقًـا سـودانية تـؤدي موسـيقى الجـاز

عـلى النحـو المتعـارف عليـه، باسـتثناء بعـض مجموعـات عازفـين تنتمـي إلى الموسـيقى العسـكرية، وكان ذلـك في حقبـة الاسـتعمار، خلافًـا للفـرق الـتي اشـتهرت بأنهـا تـؤدي لونيـة الجـاز، ولكنهـا في حقيقـة الأمـر تتنـاول موسـيقى البـوب والـروك والسـول ميـوزك إضافـة لأغنيـات سـودانية أخـرى متأثـرة بهـذه اللونيـة الموسـيقية!

كيفمـا يكـون الحـال، إلا أن كل تلـك الفـرق أدت دورًا بـارزًا، في التعريـف بهـذه اللونيـة (الأوروبيـة الأفريكانيـة) مجتمعـة وترقية الحـس الموسـيقي، لقطـاع عريـض مـن المهتمـين بموسـيقى الجـاز الغربيـة والأفريكانيـة، في أوسـاط شـبيبة ذلـك الزمـن، حـدًا وصـل إلى أن تتأثـر مجموعـة مـن شـباب الجنسـين، برحيـل المطـرب بـوب مـارلي، فأقامـت له في أحـد الأحياء سرادقًـا للعزاء! وأطلقـت مجموعـة أخـرى، اسـمه عـلى شـارع معـين بحلـة حمـد بالخرطـوم بحـري، حـين عُلِّقَـتْ لافتـة في ذلـك الشـارع تحمـل اسـمه! وامتـد التأثـير إلى أوسـاط الطـلاب بجامعـة الخرطـوم، فـكان الطـلاب المنظمـون للحفـلات السـنوية لكليـة المعمـار بالجامعـة يحرصـون عـلى أن تحييهـا فرقـة "سـمير إسـكندر"، ولمـا كانـت فرقتـه تتلقـى أجـرًا عاليًـا بمقاييـس تلـك الحقبـة، فقـد كان طـلاب المعمـار يلجـأون للأعيـان وتجـار السـوق العـربي لإعانتهـم، فكانـت في مقدمـة كل هـؤلاء عارضـة الأزيـاء الشـهيرة "عائشـة عمـر" والـتي كانـت تتنـازل عـن ريـع العـروض الـتي تنظمهـا لخاطـر أن يسـتمتع الطـلاب بموسـيقاهم!

إنــه تأثــير تلــك الفــرق الغنائيــة في حيــاة شــبيبة الســودان والعاصمــة تحديــدًا، بحيــث تعرفــوا فــرق موســيقية ومطربــين عالميــين آخريــن، في أفــق الغنــاء الموســيقي الأمريــكي والأوروبي، كمارفــن قــيي والتــون جــون وورود إســتيوارد وســتيف ونديــرز والجاكســون فايــف والــبي جــيز وماريــام ماكيبــا ولي آر مســترونق وجيمــي هاندريكــس وجيلاديــس نايــت وجــوان بيــز وجيمــي كليــف وديانــا روز وفرقــة آبــا الســويدية في أغنيتهــم البديعــة:

Eagle

They came flying’ from faraway

Now I’m under their spell

I love hearing the stories that they tell

They’ve seen places beyond my land

And they’ve found new horizons

They speak strangely but I understand

And I dream I’m an eagle

And I dream I can spread my wings

Flyin’ high, high

I'm a bird in the sky

I'm an eagle that rides on the breeze

High, high

What a feeling to fly

Over mountains and forests and seas

And to go anywhere that I please

As all good friends we talk all night

And we fly wing to wing

I have questions and they know everything

There's no limit to what I feel

We climb higher and higher

am I dreaming' or is it all real

is it true I'm an eagle

is it true I can spread my wings

Flying' high, high

I’m a bird in the sky

I’m an eagle that rides on the breeze

High, high

What a feeling to fly

Over mountains and forests and seas

And to go anywhere that I please

وأما مايكل جاكسون فلا يزال جيل سبعينيات تلك الحقبة يردد معه ومع فرقته الجاكسون فايف:

Ain’t no sunshine when she’s gone

.It’s not warm when she’s away

?Ain’t no sunshine when she’s gone

And she’s always gone too long

.Anytime she goes away

وغيرها من أغنيات، وغيرهم من أسماء! أسماء تماهوا معها، ومزيكا وعزف ورقص وسهر وطرب وألحان انفعلوا بها، وآلات موسيقية برعت فيها أسماء متعددة، أشهرها عامر ساكس وشاشاتي ويوسف شدياق (درامز) وصلاح براون وأحمد داؤود

ودحـدوح ويوسـف عبـد المنعـم وجوزيـف "بـوب" شـقيق وليـم نفسـه وعـازف البـاص جيتـار، وصـلاح خليـل العـازف البـارع في فرقـتي محمـد وردي ومحمـد الأمـين فيمـا بعـد، وبـدر الديـن وعاصـم زيـن، والمرحومـين عمـر قيـلي وعبـد الـرازق، إضافـة إلى عبـد الفتـاح الله جابـو عـازف آلاتي الكمـان والجيتـار البـارع، وعـازف الدرامـس وحيـد دينـق جابـر، نـادر السـوداني، ممـدوح فريـد وديفيـد أويـن عـازف الجيتـار مـع الكونكـورد ويوسـف رمضـان وسـمير إسـكندر (Sam Alex)، وعـن سـمير إسـكندر يقـول عنـه أحـد معجبيـه وعـارفي قدراتـه الموسـيقية بأنـه "لـم يكـن رياضيًّـا ولكـن بارعًـا في عزفـه وغنائـه، يحـاكي فـرق الغـرب المعروفـة حينئـذ"! . هـذا إضافـة إلى المغنيـة القامبيـة – الفرنسـية "فيـكي بلـين" الشـهيرة حقبـة سـبعينيات القـرن المـاضي، وقـد أحبـت بلـين الخرطـوم وصخـب لياليهـا فكانـت غالبًـا مـا تـأتي مـن فرنسـا أو وطنهـا الأصـلي قامبيـا، وتمكـث في الخرطـوم أوقاتًـا طويلـة حـتى صنعـت لهـا جمهـورًا ثابتًـا عشـق أغانيهـا وأحاطهـا بالمحبـة والإعجـاب. كمـا اشـتهرت المغنيـات الأربعـة مـن الفلبـين باسـم "دوتـرز أوف يـوس" الـلاتي كـنَّ يقدمـن فقـرات غنائيـة منـذ افتتـاح فنـدق الميريديـان بوسـط الخرطـوم، وحـدث أن غـنى معهـن مطربنـا وليـم أندريـا في إحـدى وصلاتهـنَّ. إضافـة إلى الفرقـة اليونانيـة "ذي ريفليكشـن" الـتي كانـت تقـدم أغنياتهـا بالإنجليزيـة في نـادي أبولـو. كذلـك "سـادو عـلي ورسـام" المطربـة الصوماليـة الشـهيرة الـتي زارت السـودان في سـبعينيات تلـك السـنوات مـع عـدد مـن أشـهر

المطربـات والمطربـين الصوماليـين، وتركـز ورسـام في أغنياتهـا عـلى القضايـا السياسـية لشـعب الصومـال والمطالبـة بالعدالـة الاجتماعيـة، وهـي الآن تتبـوأ مقعـدًا برلمانيًّـا في بلادهـا، تناضـل مـن خلالـه مـن أجـل قضايـا أهلهـا الأساسـية، عـن طريـق إعـادة تأسـيس دولـة الصومـال.

أسـماء تابعهـا شـباب في تلـك الحقبـة مـن الجنسـين الذيـن اسـتهواهم هـذا النـوع مـن فـن الموسـيقى والعـزف، فطفقـوا يتابعـون أنشـطة تلـك الفـرق خـلال الأمسـيات والحفـلات الموسـيقية، وأيـام الخميـس مـن كل أسـبوع، ومناسـبات أعيـاد الكريسـماس ورأس السـنة، عبر صالات فسـيحة مكيفـة ومريحة، تضفـي ألقًـا عذبًـا عـلى فضـاء الاسـتماع والاسـتمتاع وسـاحات الرقـص، كسـانت جيمـس وغـردون ميـوزك هـول المعروفـة باسـمها الشـهير"GMH" والكريـزي هـورس وكوبـا كوبانـا، وأنديـة كالتنـس واليونـاني والألمـاني والأمريـكي والعـربي والقبطـي والكاثوليـكي والسـوري وأبولـو، وفنـادق كالإكسلسـيور وأراك والميريديـان والأكروبـول وحدائـق كالريفـيرا أم درمـان وبحـري وكازينـو النيـل الأزرق والكشـافتين الجويـة والبحريـة بالخرطـوم والقريـن فيلـدج والهـابي لانـد ثـم كازينـو حمَّـاد العائـم، وهـو باخـرة راسـية عـلى شـاطي نهـر النيـل، والـذي شـيدت إدارتـه مسرحـه، بنـاءً عـلى توصيـة ورغبـة وليـم نفسـه، وهـو المسرح الـذي غـنى عليـه ولأول مـرة أغنيتـه "بـدور أرتـاح" ومـن هنـاك اشـتهرت! ، هنـا تجـدر الإشـارة إلى أن إفـادات أصدقـاء وليـم قـد تناقضـت حـول المسـرح الـذي تغـنى فيـه لأول مـرة بأغنيـة

"كفايـة مـزاح" رغـم اتفاقهـم عـلى زمـان التقديـم.

ويوضـح أحـد المنتمـين لتلـك الحقبـة قائـلًا: "أثـر الجاليـات الأجنبيـة ومـا تركـه الإنجلـيز مـن أنديـة وقاعـات للتسـلية محـدودة اسـتمر حـتى منتصـف أو نهايـة السـبعينيات، العاصمة لـم تكـن بحجـم اليـوم حـتي نهايـة الثمانينيـات، ولـذا فـإن تلـك الأنديـة والقاعـات كانـت كافيـة لاسـتيعاب أعـداد ترتادهـا يوميًّـا للعشـاء والاسـتماع إلى موسـيقى فـرق سـودانية أو أجنبيـة، قاعـة أو ملهـى سـانت جيمـس في الخرطـوم شرق كانـت كثـيرة الـرواد ولكـن باتـزان، صالـة غـوردون في الخرطـوم غـرب كانـت لفئـات قـادرة عـلى كلفتهـا العاليـة، إذ كانـت الصالـة تـأتي بفـرق للرقـص والاسـتعراض مـن كل أنحـاء الدنيـا، أنديـة الجاليـات عرفـت وصُنِّفـت وفـق مـا تقدمـه مـن وجبـات، ومنهـا مـن كانـت تـأتي بفـرق غنائيـة يوميـة أو أسـبوعية أو موسـمية - رأس السـنة والكريسـماس - كان نـادي التنـس كذلـك مـن الأنديـة الـتي تـأتي بمثـل ذلـك، معظـم الفـرق الغنائيـة كانـت سـودانية التكويـن غربيـة الأداء والغنـاء (...) كانـت الفـرق الإثيوبيـة والصوماليـة في تواجـد مسـتمر، حيـث يعشـق غناءها سـواد الشـعب السـوداني، ووسـط كل هـذا كان للفنانـين السـودانيين المعروفـين حينئـذ في هـذه الأنديـة وجـود ظاهـر في المناسـبات العامـة (...) كانـت بعـض الحدائـق العامـة، حديقـة بحـري، الريفـيرا... إلـخ تـأتي بفـرق وفنانـين في المناسـبات، ولكنهـا كانـت مـلاذ التجمعـات الصغـيرة مـن طـلاب وموظفـين يأتـون للعشـاء وفيهـم صاحـب صـوت جميـل يغـني، أو تأخذهـم نشـوة فيصدحـون كلهـم

بغنـاء، ثـم ينفـض السـامر دون ضجيـج سـيرًا أو محشـورين في سـيارة واحـدة، لـم يكـن لهـوًا ماجنًـا وكان فيـه كثـير مـن الاستمتاع الهـادئ، حـال أهـل السـودان حينئـذ، كانـت أصـوات الموسـيقي تتـسرب بإيقاعاتهـا السـودانية الغربيـة الإفريقيـة المختلفـة، مـن تلـك الأنديـة والصـالات إلى ليـل الخرطـوم الهـادئ " .

وقـد تركـت لونيـة غنـاء الجـاز أثرهـا الواضـح في الأغنيـة الوتريـة الحديثـة في السـودان، إذ تماهـى عـدد مـن مطـربي الدرجـة الأولى مـع هـذه اللونيـة، وقدمـوا العديـد مـن الأعمـال بلونيـة الجـاز وآلاتهـا، مثـال صـلاح ابـن البادية في أغنيتـه (إلهامـي) على إيقـاع التويسـت ومحمـد وردي في (الصـورة) عـلى إيقـاع الجيرك، في هـذا الشـأن يواصـل موسـيقار الجـاز نـادر السـوداني إفاداتـه للكاتـب موضحًـا: "أثـرت الموسـيقي السـودانية في حقبـة انتشـار أغـاني التوسـت والإسـويغ مـن خـلال العديـد مـن الأعمـال الـتي سـجلتها إذاعـة أم درمـان، وتقريبًـا كل فنـاني تلـك الحقبـة تأثـروا بمـا تقدمـة فـرق مـا يعـرف بالجـاز في السـودان، وفي الفـترة الـتي ظهـرت فيهـا موجـة أغـاني التوسـت والسـامبا تأثـر الفنـان السـوداني بمفرداتهـا، فنجـد إبراهيـم عـوض في أغنيـة "جفيـت النـاس" سـيد خليفـة "المامبـو السـوداني" والعديـد مـن أغانيـه، عبـد الكريـم الكابـلي "سـكر" محمـد وردي في أغلـب أغانيـه، أبـو عـركي البخيـت "اوعـد يـا ذاتي دبلـة الخطوبـة"، ولـو فتشـت جـوة أغـاني صـلاح مصطفـى حتـلاقي العديـد، وتقريبًـا كل هـذا الجيـل تأثـر، حـتى الباشـكاتب ود اللمـين في أغنيـة الموعـد" ...

"في الواقع دخلت العديد من آلات الجاز الغربية كالجيتار والباص والساكس فون وعازفين مهرة كصلاح خليل ومحمد جِبْرِيل علي يعقوب والرشيد الجوهري وعامر ساكس وصلاح دهب، والعديد من عباقرة سلاح الموسيقي التي شهدت بداياتهم فرقة جاز المدرعات والعديد من الأسلحة، فكان هؤلاء العازفين المهرة دارسين لأصول الموسيقي ومحتكين بما يدور من تطور للأغنية الغربية، فكان لهم تأثير مباشر في صياغة شكل موسيقي يحمل مواصفات الموسيقى الغربية التي تهتم بشكل "الأسونغ" ورقصات "التويست" والجيرك والشارلستون، وطبعًا هنالك راقصون مهرة كأفريكانو، لم يكن أفريكانو موسيقيًّا بقدر ما كان يعشق الموسيقى، ويعبر بحبه لها من خلال رقصة في ليالي سانت جيمس، التي كان يحيي لياليها الفنان شرحبيل أحمد، وكان معه طلعت أبو العلاء الذي درس أصول الرقص في أوروبا، ومع العديد من الراقصات السودانيات اللاتي لا أذكر أسماء بعضهنَّ"... "عندما ننظر إلى تكوين فرقة الإذاعة والتلفزيون السوداني في فترة أواخر السبعينيات نجد خليط من الآلات الشرقية كالكمنجات وبعض الآلات الإيقاعية كالرّق والطبلة والبنقز والقانون وأساتذة تتلمذوا على أيادي مصرية، وعلي أواخر الستينيات وبداية السبعينيات كانت الأوركسترا خليطًا من عازفي ما يعرف بالجاز وفي مقدمتهم بالطبع الفنان عثمان المو ومحمد اسماعيل بادي والعديد من جيل سلاح الموسيقي ..." وفرض الواقع نفس نسبة انتشار لونية موسيقي الجاز

الـتي أثـرت بكبـار الفنانـين، فكانـت في كل المناسـبات لا بـدَّ مـن وجـود فرقـة مـن الفـرق المشـهورة الـتي تتنافـس فيمـا بينهـا لتصـل لـذروة التنافـس في مـن يتغـنى بأحـدث الأغـاني الغربيـة الـتي توجـد في التـوب الغـربي وعـلى مسـتوى بيـع الأسـطوانات في العالـم، فظهـرت العديـد مـن الأغـاني بجانـب ظهـور نجـوم كالفنـان الكبـير شرحبيـل أحمـد وجيـلاني الواثـق وليـم أندريـا، والعديـد مـن الذيـن أثـروا السـاحة الفنيـة بهـذه اللونيـة.

ومـن جانـب آخـر، تعـددت اهتمامـات جيـل السـبعينيات، حيـث لـم تكـن الموسـيقى وحدهـا، هـي الـتي جذبـت عشـق ذلـك الجيـل لدوائرهـا، فقـد كانـت السـينما حـاضرة، وكان الـذوق فيهـا رفيعًـا وفي ثقافتهـا، حيـث كانـت دور العـرض في العاصمـة والأقاليـم تتنافـس في جـذب المشـاهد، عـن طريـق عـرض أرفـع الأفـلام، وكان مجتمـع العاصمـة تحديـدًا، يسـهر في هـذه الـدور الـتي تكتـظ بالـرواد مسـاء وليـلًا، أسر ومجموعـات وأفـراد، وكان أغلـب هـواة السـينما ودور العـرض لهـم إلمـام جـم بالممثلـين العالميـين وبيليوجرافيتهـم الاجتماعيـة، وكـذا بالمخرجـين ومؤلفـي موسـيقى الأفـلام وكافـة التفاصيـل الأخـرى المتعلقـة بالسـينما وعالمهـا المتحـرك، كانـت مؤسسـة الدولـة للسـينما ترعـى هـذا الـذوق، وكان عـلى رأسـها مثقفـان يشـار إليهمـا بالبنـان؛ همـا الراحلـة سـعاد إبراهيـم أحمـد الأسـتاذة المرموقـة بجامعـة الخرطـوم، والقـاص والأديـب الراحـل عـلي المـك، فجلبـت مؤسسـتهم أعظـم وأشـهر الأفـلام مـن هوليـود والسـويد والاتحـاد السـوفيتي والهنـد ومختلـف بقـاع

العالـم، وفي مقدمتهـا فيلمًـا جبـارًا كفيلـم "زد" الـذي يتحـدث عـن وقائـع الانقـلاب العسـكري المأسـاوي في اليونـان، وأكـثر مـن ذلـك دعـت الموسـيقار اليونـاني العالمـي ميكـس ثيوداركـس مؤلـف موسـيقى الفيلـم لحضـور أول عـرض لـه بسـينما كولوزيـوم! فحيَّـاه جمهـور المشـاهدين قبـل بدايـة العـرض ووقفـوا يصفقـون لـه وهـو في شرفـة الدرجـة الأولى برفقـة سـعاد وعـلي عليهمـا رحمـة الله، وهـذا مـا يشـير إلى ثقافـة جمهـور سـينما السـبعينيات ووعيـه المتجـذر لجميـع مـا يتعلـق بفنيـات السـينما! هـذا وغـيره مـن الأفـلام الرفيعـة الأخـرى كسلسـلة الأفـلام الـتي تناولـت حـرب فيتنـام "العـودة إلى الوطـن" للمثلـة الأمريكيـة جـين فونـدا والحائـزة عـلى جائـزة الأوسـكار لدورهـا في الفيلـم، و"صائـد الغـزلان" الحائـز عـلى أوسـكار أفضـل فيلـم للعـام ١٩٧٨ للمثـل روبـرت دي نـيرو، و"الفـك المفـترس" الـذي جسـد ولأول مـرة المؤثـرات الصوتيـة والصـورة السـينمائية ثلاثيـة الأبعـاد، وسلسـلة أفـلام الغـرب الأمريـكي، وفي مقدمتهـا أفـلام "ديجانقـو" لـ"كلينـت إسـتود" ثـم أفـلام لممثلـين عظـام كالإيطـالي "جوليانـو جيمـا" و"ليفـان كليـف" و"زوربـا اليونـاني" لـ"أنتـوني كويـن"، وغيرهـا مـن أفـلام أخـرى كـ"يوليـوس قيـصر" و"شـجرة المعرفـة" و"الشـاهد" و"جسـد ديبـورا" الرائـع إلى جانـب سلسـلة رائعـة مـن أفـلام الحـرب العالميـة الأولى والثانيـة، وكـذا ممثلـين عظـام كـ"ريتشـارد بيرتـون" و"السـويدية إنقريـد بيرقمـان" و"سـتيف ماكوين"، "أورسـولا أنـدروس" و"كيرك دوقـلاس" و"بـيرت لانكسـتر" و"صوفيـا لوريـن" و"إليزابيـث

تايلـور" وغيرهـم وغيرهـن. وعندمـا نلقـي نظـرة حاليًّـا إلى واقـع السـينما في العاصمـة والأقاليـم فـإن حـال دورهـا فقـط يغـني عـن السـؤال، دعـك عـن أنشـطتها المسـائية، إذ البـوم ينعـق في غالبيـة جنبـات هـذه الـدور، في حـين أن لعـاب رأسـمالية الـشركات الربويـة ومتعـددة الأنشـطة المريبـة يسـيل لمقـار تلـك الـدور!

ومـن الأجـواء الفنيـة لحقبـة السـبعينيات، اشـتهرت البرامـج التلفزيونيـة الآسرة، كبرنامـج تحـت الأضـواء لحمـدي بـولاد، وصـور شـعبية للطيـب محمـد الطيب، وبيـت الجـاك للصلحي، خـد وهـات لأدمـون منـير، وسـهرة الخميـس لعفـاف صفـوت، وإخـراج صـلاح السـيد، فرسـان في الميـدان لحمـدي بـدر الديـن وعـلي المـك، جولـة الكاميـرا لمتـوكل كمـال، بانوراما لصـلاح الديـن الفاضـل وإخـراج يسـن كمـال، أدب وفكـر لمحمـد حجاز مدثـر، وفنـان وجمهـور ومحطـة التلفزيـون الأهلية، التي شـكلت نقلـة نوعيـة في الدرامـا السـودانية، الـتي قادتهـا مجموعـة مـن الشـباب الـدارس وقتهـا بمعهـد الموسـيقى والمـسرح، فـبرع كل مـن محمـد نعيـم سـعد، محمـد السـني دفـع الله، الراحـل العمـيري، مـوسى الأمـير، مصطفـى أحمـد الخليفـة، وغيرهـم، ثـم جنـة الأطفـال بمذكـرات فيـل وتمجيـد القرويـة! وتمثيليـات قسـم الدرامـا وإبـداع ممثلـين كعـوض صديـق وحسـن عبـد المجيـد، والهـادي الصديـق، وتحيـة زروق، ومـنى عبـد الرحيـم، وحسـن عبـد الوهـاب، وإسـماعيل خورشـيد، وفتحـي بركيـة، مـع كـم هائـل مـن المسرحيـات المصريـة كمدرسـة المشـاغبين

وشاهد ما شافش حاجة والمثيلات من المسلسلات المصرية كأحلام الفتى الطائر، وضمير أبلة حكمت، وعيلة الدوغري، والبرادعي. وسينما مصرية كأفواه وأرانب، وإمبراطورية ميم، وإسكندرية ليه، والرصاصة لا تزال في جيبي، وأريد حلًّا، وأميرة حبي أنا. إذاعة أم درمان وأصوات ليلى المغربي وليلى المك وسهام العمرابي ومحاسن سيف الدين وسعاد أبو عاقلة وعفاف صفوت عبر الأثير، وبرامج إذاعية أخرى جذابة وأنيقة! تمثيليات إذاعية شهيرة كانت تبث في ليالي رمضان للترويح، كتمثيلية قطر الهم لهاشم صديق، والدهباية لدكتور علي البدوي المبارك، ثم تمثيليات كالهمباتة وقلوب من خشب، والتي برعت فيها النجمة تحية زروق عندما أدت أكثر من دور في تلك التمثيلية الإذاعية الرائعة. وغيرها من تمثيليات متعددة قدمتها الإذاعة السودانية وبرزت فيها نجوم أصبحت شهيرة في عالم الدراما لاحقًا في المسرح والتلفزيون والسينما، يسهر الناس شهريًّا مع حفلات الإذاعة الشهرية الحية في ليالي رمضان بمبانيها بأم درمان حيث يتم تقديم كبار المطربين، كما يستمتع الجمهور بعروض خريجي معهد الموسيقى والمسرح في أعمالهم الدرامية على خشبة مسرح دار المرشدات ومركز شباب أم درمان والدور الأخرى، ويجتهد نادي السينما في تقديم كثير من العروض الجاذبة. ويواصل التشكيليون بقدر ما هو متوفر من إمكانيات قليلة في عروضهم بالكثير من المواقع بالعاصمة. كما تشهد حقبة السبعينيات إنتاج أفلام سودانية خالصة،

أشـهرها فيلـم رائعـة الطيـب صالـح "عـرس الزيـن" للمخـرج الكويـتي خالـد الصديـق، ثـم فيلـم "آمـال وأحـلام" لمخرجـه إبراهيـم حسـين مـلاسي. إضافـة إلى عـدد مـن الأفـلام الوثائقيـة والتسـجيلية الـتي أنتجهـا الشـباب المتخصـص في قسـم السـينما بمصلحـة الثقافـة وقتهـا.

أمـا المـسرح السـوداني فيقـدم مسرحيـة سـودانية خالصـة كرائعـة حمدنـا الله عبـد القـادر "خطوبـة سـهير" الـتي تبـدع فيهـا تحيـة زروق نجمـة الأداء البديـع آنـذاك، وكـذا تفعـل في مسرحيـة "الأسـد والجوهـرة"! وللأطفـال تقـدم مـنى عبـد الرحيـم مسرحيـة أخـضر عـزاز، ثـم لا يلبـث أن يتحـول المـسرح إلى ملحمـي ثـوري بباقـة مـن المسرحيـات الـتي خلـدت المـسرح السـياسي المحـرض في أعمـال مسرحيـة كـ "نبتـة حبيبتي" لهاشـم صديـق و"جوابـات فـرح" ليوسـف خليـل وغيرهـا.

في الطـرب العـام يبـدع وردي بخماسـيته المموسـقة "جميلـة ومسـتحيلة - قلـت ارحـل - بناديهـا - سـلمت - الحـزن القديـم" وفي سـماء العاصمـة يرتفـع مـردوم الغـرب بقيـادة عبـد القـادر سـالم وصديـق عبـاس والراحـل إبراهيـم مـوسى أبـا، كمـا يبـدع زيـدان برائعاتـه "قـصر الشـوق – مـا أصلو ريـدا" ومحمـد الأمين في "شـال النـوار" ويدغـدغ شرحبيـل شـعور جيـل السـبعينيات "بالليـل الهـادي" و"لـو تعـرف الشـوق".. ويظهـر الخالـدي وعـز الديـن عبـد الماجـد وتظهـر أغنيـة "حبيـت عشـانك كسـلا" والجيـل نفسـه يغـني مـع ظاهـرة أبـو عبيـدة حسـن والبلابـل

وحنـان الصغـيرة و"لبـان بازوكـة وماكـس"! ويهتـف موسـيقيًّا مـع لحـن الموسـيقار ناجـي القـدسي الـذي "صـوَّر" بـه أغنيـة السـاقية لتتحـول مقاطعهـا إلى هتـاف ضـد مايـو والنمـيري بشـكل واضـح لا لبـث فيـه! خاصـة عنـد المقطـع الـذي يقـول موسـيقيًّا "السـفاح.. السـفاح.. راس نمـيري مطلـب شـعبي" وهكـذا!

وعـلى جانـب آخـر مـن مشـهد السـبعينيات، تنتـشر الثقافـة العامـة عـبر أكـثر مـن صحيفـة ومجلـة رغـم أن جلهـا كان مملوكًا لسـيئ الذكـر الاتحـاد الاشـتراكي، التنظيـم السـياسي والأوحـد في تلـك السـنوات، فـإلى جانـب صحـف كالأيـام والصحافـة والقـوات المسـلحة، تجـد مجلـة الثقافـة السـودانية وتجـد مجلـة الخرطـوم المؤسسـة منـذ منتصـف سـتينيات القـرن المـاضي وتجـد مجلـة كالإذاعـة والتلفزيـون والمـسرح وسـودان نـاو الإنجليزيـة، ووازا ومجلـة الشـباب والرياضـة والصبيـان إلى جانـب صحـف ومجـلات ودوريـات عربيـة وأجنبيـة، تـبرز ظاهـرة المكتبـات الثقافيـة ودورهـا بـكل تخصصاتهـا، إذ شـهدت حقبـة السـبعينيات وجـود العديـد مـن المكتبـات العامـة في أماكـن مختلفـة مـن العاصمـة، ففـي الخرطـوم نجـد أكـثر مـن مكتبـة عامـة للاطـلاع، لا سـيَّما داخـل الأنديـة الاجتماعيـة، كمـا شـهدت أم درمـان وحدهـا العديـد مـن مثـل هكـذا مكتبـات، كمكتبـة أم درمـان المركزيـة الـتي أصبحـت أثـرًا بعـد عـين وتقـف دارهـا بحـي البسـتة بـأم درمـان كأطـلال تحـكي واقـع مـاضي ثقـافي تليـد! وإن أحصينـا مثـل تلـك المكتبـات في

العاصمة فسنجد أسماءً متعددة، كدار الثقافة بالخرطوم التي استضافت تجمع أبادماك الثقافي الأدبي حتى ١٩٧١، نادي الخريجين أم درمان، نادي بانت الثقافي الاجتماعي، نادي الديم وسط الثقافي ونادي السجانة الثقافي ونادي أم درمان الثقافي الاجتماعي والتابع لجماعة الإخوان المسلمين، نادي الحديد الرياضي الثقافي بحي العرب ونادي أبروف الثقافي، نادي بيت المال الثقافي، نادي البوستة الثقافي بسوق القش بحي البوستة بأم درمان، أندية العمال في بحري وأم درمان والخرطوم، فضلًا عن ظاهرة المكتبات الخاصة التي يهيئها بعض المواطنين لطلاب العلم والمعرفة ببيوتهم كمكتبة الأديب الراحل عبد الله حامد، الأمين رئيس جمعية الندوة الأدبية بأم درمان، وكانت جمعيات الصداقة مراكز ثقافية، ومنها جمعية الثقافة السودانية السوفيتية أمام بوابة عبد القيوم، والتي رئسها مدة الأديب الراحل عبد الله حامد الأمين، المجلس الثقافي البريطاني (البريتش كاونسل) بالقرب من المجلس البلدي أم درمان، وآخر في الخرطوم، المجلس الثقافي الأمريكي شارع القصر وفي مكانه الآن البنك الإسلامى المملوك للختمية! المركز الثقافي الفرنسي شارع القصر وكان يرسل الطلاب المتفوقين في بعثات إلى فرنسا. المعهد الثقافي الألماني (جوتة) شارع الملك نمر، المعهد الثقافي السوفيتي ومقره شارع الجمهورية، نادي (التجار) بأم درمان شارع الموردة مقابل مدرسة أم درمان الأميرية وكان يضم فريقًا لكرة السلة. فريق نادي العمال لكرة السلة الخرطوم. نادي

الهشـماب، مركـز الخرطـوم جنـوب، نـادي ضبـاط المعـاش بالمـوردة، نـادي الكوكـب بحـري، نـادي الصبيـان ونـادي الأسرة، وهنـاك أنديـة شـهيرة للجاليـات العربيـة موزعـة في مدينـة الخرطـوم كالنـادي السـوري، العـربي، أبولـو، نـاصر، المكتبـة القبطيـة، الأمريـكي، الأرمـني، الكاثوليـكي، المكتبـة القبطيـة، الهنـدي، الإنجلـيزي، إضافـة إلى أنديـة مهنيـة كالأطبـاء، المهندسين، الزراعيين، الصيادلة، البياطرة، الخطوط الجوية السـودانية، ضبـاط الشرطـة والقـوات المسـلحة. طـلاب جامعـة الخرطـوم، أسـاتذة جامعـة الخرطـوم، الكشـافة البحريـة ونـادي الـزوارق. ومكتبـة المجلـس البريطـاني قـرب الأحفـاد القديمـة أمـام بيـت الأمـة ومكتبـات المركـز الثقـافي الأمريـكي والسـوفيتي وجوتـة والفرنـسي البعثـة الأمريكيـة جـوار سـينما كلزيـوم والمكتبـة الأمريكيـة شـارع المـك نمـر، مكتبـة دار جامعـة أم درمـان الإسـلامية.

الجديـر بالذكـر أن بالعاصمـة بعـض المقاهـي شـكلت عـن حـق أنديـة اجتماعيـة بأكـثر منهـا أماكـن لاحتسـاء الشـاي والقهـوة، كمقاهـي مثـل "ود الأغـا" و"شـناكة" و"جـورج مـشرقي" و"شـديد" و"يوسـف الفـكي"! إضافـة إلى العديـد مـن ظواهـر الأنديـة الرياضيـة والاجتماعيـة الـتي كانـت منتـشرة في مجتمعـات عاصمة السـبعينيات.

كل ذلـك كان في ظـل ديكتاتوريـة عسـكرية تتمظهـر بملامـح مدنيـة، وتحـاول أن تضفـي عـلى نفسـها بريقًـا مـن التحـضر

والمدنية، إذ ظل الدستور علمانيًّا ببريق ديمقراطي في مواده، ولكن واقع الحال يعكس ممارسة لنظام ديكتاتوري شمولي، ظل يتململ من ديمقراطية الدستور الذي صدر عام ١٩٧٣ ليجهز عليه التوجه الكامل نحو حكم الفرد المطلق، الذي أسفر عن نفسه بواسطة الدولة الثيوقراطية، والتي أُعلِن عنها في ١٩٨٣ عام تطبيق قوانين ما يسمى بالشريعة الإسلامية، والتي اتفق شعبنا اللماح على وصفها بقوانين سبتمبر البغيضة نسبة لذاك الشهر المشؤوم الذي أُعلِنت فيه، ومع كل ذلك فإن قارنت ذاك الزمن بالوقت الحالي، فإن البون يظل شاسعًا.

فما يؤسف له حقًّا أن كل هذه الثقافة اندثرت، تحت قبضة سياسات تعادي كل ما هو جميل ومفرح وإنساني في وجهة المعرفة والترويح الراقي، فكثرت الجحافل المسلحة بالجهل لتنفث سمومها عبر بعض منابر "الورع" بادعاء أنهم وحدهم من اصطفاهم الله (عزَّ وجل) لحراسة الفضيلة في المجتمع السوداني، وقد انطبق عليهم فعلًا ما قاله عنهم الأستاذ بابكر فيصل الكاتب المرموق بصحيفة السوداني، إذ أشار إلى "أنَّ وسائل الإعلام - المرئية على وجه الخصوص - في مجملها حكومية أو تدور في فلك الحكومة، تسير في طريق لاتجاه واحد ولا يوجد فيها تنوع وتعدد، والبعض منها الذي يحاول أن ينفك من أسر هذه الأحادية يواجهُ بالمنع والتهديد بالإغلاق ودونك الحملات المنظمة التي يشنها أئمة المساجد وشيوخ الفتاوى السريعة "تيك

أواي" ضـد أي برنامـج لا يتمـاشى مـع فكرهـم وتوجهاتهـم".

وحيـث جيـل يعيـش اليـوم في ظـل ظروف غـير طبيعيـة، تصادر فيهـا حقـوق وحريـات النـاس فيمـا يتعلـق بترقيـة أذواقهـم فيمـا يقـرأون ويتعرَّفـون ويسـتمعون ويشـاهدون. فيُحصـارون ويُعتقلـون في حـدود مكتبـات فقـيرة ومتواضعة في دائـرة وأضابير معارفهـا، مكتبـات لا توفـر في غالـب الأحايـين سـوى أصنـاف مـن "السـبح" ودوريـات بائسـة مـن شـاكلة "عـذاب القـبر" و"تعاويـذ أدعيـة مـا قبـل النـوم" و"فضائـل التعـدد في الـزواج" ولا تضـم أقسـامها الأخـرى إلا معـارف متواضعـة تتعلـق بأشـهى الوجبـات العربيـة والعصريـة، ومثلهـا مـن أشـهى الحلويـات الشرقيـة! نعـم، فشـباب اليـوم شـباب عريـض مـن الجنسـين، يعيش على الزواجـر والنواهـي كل صبـاح جديـد! وكل صبـاح جديـد تُنتهَـك أبسـط حقوقـه في مـا يهـوى ويحـب ويميـل، في مـا يرتـدي ويقـرأ ويسـمع ويشـاهد، كيـف يمـشي وكيـف يصفـف شـعر رأسـه، كيـف يصبـح وكيـف يمـسي، وفي أحايـين كيف يـأكل ومـاذا يشرب. فيهربـون زرافـات ووحدانًـا إلى مـا هـو أخطـر حـين يغيبـون عقولهـم بمـواد مخـدرة أفتـك وأخطـر! نعـم، يتـم كل ذلـك حينمـا تتمشـكل عليهـم تلـك الأسـئلة الـتي تقـض مضاجعهـم، وتؤرقهـم، "فمـن بـين جميـع الأسـئلة الكـبرى الأخـرى، العالقـة بأذهانهـم، أسـئلة متعلقـة بمسـتقبلهم القاتـم تـترى، فيمـا يخـص، أزمـة البطالـة المسـتفحلة، والمقـرر الأكاديمـي الفقـير، والفاقـد التعليمـي، وارتفـاع تكاليـف المعيشـة نفسـها، في المأكل والملبـس، والعـلاج والسـفر، وأزمـات كالمخـدرات، المتفشـية في

أوساطهم و(أوساطهن)، الإيدز، الجدب الاجتماعي المدقع، والفقر النفسي والفكري، الذي يحيط بمجتمعاتهم، التي تمت عسكرتها، وأصبحت محاصرة، بالنواهي والزواجر، لا أندية اجتماعية، لا أماكن للترفيه، وتزجية الأوقات البريئة، داخل عاصمة، ووسط مدن، تنام باكرًا منذ السابعة مساءً، ليواصلوا في صباحهم الباكر، طاحونة الحياة الكئيبة، والمثقلة بالكدح والضنك، في المواصلات، وفي سبل كسب العيش، في المياه الشحيحة، وندرة الطاقة والكهرباء، وغياب البنيات الأساسية، لحياة جديرة، بأن يذوقوا فيها طعم الدنيا وحلاوتها؟!". لقد أضحت ظواهر أزمة الشباب من الجنسين مستفحلة، لدرجة أن بعض الأقلام المسؤولة بدأت في تناولها لتحليلها في محاولة للعلاج، ومن بين أكثر من تناول حول الموضوع، نشير إلى كتابة الصحفي المخضرم نور الدين مدني الذي أشار في أحد أعمدته الصحفية قائلًا: "لسنا في حاجة إلى الحديث عن الأسباب التي دفعت بعض شبابنا من الجنسين إلى الانحراف، فهي معروفة للجميع، لكنني أركز هنا على (الغفلة) و(البعد) النفسي والاجتماعي الذي ضرب بعض الأسر، حتى ضعفت العلاقات الأسرية وغاب الاجتماع الحميم حتى على مائدة الطعام، وأصبح الأبناء والبنات يبحثون عن هذه الحميمية خارج نطاق الأسرة، ويا للأسف رفقاء ورفيقات السوء على أهبة الاستعداد لاحتضانهم واحتضانهن في العالم (المتصور) الذي يغيبهم تمامًا عن الواقع الذي يحاولون

الهـروب منـه".. "إننـا نخاطـب الآبـاء والأمهـات وأوليـاء الأمـور في الأسر والمـدارس والجامعـات والمعاهـد العليـا وفي مؤسسـات الرعايـة الاجتماعيـة ومنظمـات الشـباب، و(ليـس) أولئـك الذيـن يلاحقـون (الظاهـر) من الشـكل بالإجـراءات العقابية و(الكشـات) الـتي فشـلت عمليًّـا في محـاصرة الظواهـر السـالبة في المجتمـع. رسـالتنا موجهـة للآبـاء والأمهـات وأوليـاء الأمـور ولـكل المعنيـين بمسـتقبل الشـباب والأسرة لتحمـل مسـؤوليتهم الاجتماعيـة والتربويـة والأخلاقيـة تجـاه النـشء وجيـل المسـتقبل". وتنـاول القضيـة الكاتـب بابكـر فيصـل مشـيرًا إلى فـرض ثقافـة "المنـع والتحريـم" عـلى هـذا الجيـل الـذي عـبر عـن رفضـه لمثـل هـذه السياسـة ونفـور الشـباب ممـا يسـمى المـشروع الحضـاري، ومـن ثَـمَّ خـسران الرهـان عـلى الجيـل الـذي نشـأ وترعـرع في ظـل الإنقـاذ. ويطـرح للمسـؤولين عـن كل ذلـك أسـئلة حـول "هـل عرفتـم لمـاذا خـرج عـشرات الآلاف مـن الشـباب عنـد وفاة المطـرب محمـود عبـد العزيـز؟ ولمـاذا يتزاحـم الآلاف لـشراء التذاكـر للحفـلات المعلنـة للمطربـين العـرب؟ ولمـاذا يحقـق برنامـج مثـل أغـاني وأغـاني أعـلى نسـب مشـاهدة؟ هـذه هزيمـة لمشروعكـم الحضـاري إن كنتـم تفقهـون".

كلكم تشتلون الورد على مقابر الخرطوم!

وعـودة إلى وليـم أندريـا ولجيلـه في سـبعينيات القـرن المـاضي، فوسـط كل تلـك الأجـواء الموسـيقية المتعـددة في حياتهـم، احتلـت فرقـة وليـم أندريـا المرتبـة الأولى، إلى جانـب شرحبيـل، الأصابـع الذهبيـة، العقـارب، فرقـه كمـال كيلـة، الريـر سـتونز، البلوسـتارز والكونكـوردس، المرتبـة المتقدمة في الشـهرة والتألق، فكانـت هـي الفـرق الـتي تحـيي الحفـلات الغنائيـة، للسـفارات والأنديـة الكبـيرة والجاليـات الأجنبيـة، مـن شـوام وأرمـن وإغريـق، وقـد مثَّـل وليـم أندريـا – بعـد شرحبيـل - مطـرب الجـاز الأكـثر شـهرة، وسـط هـذه الفـرق الغنائيـة، وكان بمنزلـة الدينامـو الأسـاسي في فرقتـه كمبـدع موهـوب، قائـدًا وشـاعرًا وملحنًـا وعازفًـا ومغنيًـا بصـوت عـذب آسر! خصـص إحـدى غـرف منزلـه، وكانـت "جراجًـا" لبروفـات الفرقـة الـتي كان يقودهـا باقتـدار حيـث كان صارمًـا وحازمًـا، خاصـة مـن نواحـي المظهـر العـام والتـصرف والمسـلك اللائـق والمواعيـد المنضبطـة، لـذا فقـد أسـهم في نجـاح واسـتقرار فرقتـه الـتي قدمـت وأنتجـت عـددًا مـن الأعمـال الموسـيقية الجديـدة.

شكَّل منزله كعبة يحج إليها معجبوه ومعجباته من كل فجاج العاصمة المثلثة، لا سيَّما وأن ما قوى من علاقتهم به، هو ما عرف عنه من تواضع وتهذيب وكرم وترحيب حميم بكل زواره، "حتى إن لم يكن بينه وبينهم سابق معرفة". "لم يكن فقط مواطنًا سودانيًّا، كان رسامًا له لوحات و معارض، وفنان عبقت ليالي الخرطوم ألحانه، ورقص العشاق على إيقاعه. كان بطل السودان الأول في كرة السلة بلا منازع، كان نجم الملاعب وعطرها الفواح. مثَّل السودان في العشرات من المباريات الدولية، ولموهبته الفذة صفقت الملايين وشجعت السودان جماهير لم تر السودان، إلا في إبداعات وليم أندريا. كان وليم فوق كل ذلك إنسانًا، إذا تحدثت إليه جلس يحدثك كالطفل الصغير، عن آماله وطموحاته ونزاعه الداخلي بين الدراسة والرياضة والموسيقى، ووقته الذي لا يتسع لهم جميعًا. (...) كان وليم هو الفرح في دنيانا، كان حب جيلٍ وحُلمًا تبدد" . وحول اهتمامات وليم التشكيلية، فهي معلومة تفاجئني بها السيدة شادية أندريا الشقيقة الوسطى لوليم، ضمن حوار حول سيرة شقيقها الراحل أجريته معها، مؤكدة أن قليلين جدًّا من يعلمون بأحد مجالات الهوايات الأخرى لوليم، ومن بينها فن الرسم والتشكيل، مشيرة إلى مجموعة من اللوحات التي أنجزها شقيقها، ولا يزال شقيقهم بوب يحتفظ بها!

أما انطباعات صديقه أحمد رستم، شاعر أغنية "كفاية مزاح"، فيعود إلى سنوات مضت قضاها معه فيقول: "غزال

كـرة السـلة السـودانية، عرفتـه لاعبًـا ممـيزًا سـاحرًا في الملعـب، وعرفتــه فنانًــا ومغنيًــا بارعًــا، وعرفتــه صديقًــا وفيًّــا صادقًــا بســيطًا متواضعًــا في معاملاتــه، في لقاءاتــه، في جلســاته، في وعـوده، ولـولا الكمـال لله (جـل جلالـه) وحـده، لقلـت عنـه إنـه كإنسـان مكتمـل في كل جوانبـه وقدراتـه" . ثـم يضيـف رسـتم واقعـة بعينهـا تكشـف أكـثر المزايـا الإنسـانية الرفيعـة الـتي كان وليـم يتمتـع بهـا، فيـسرد قائـلًا: "ومـن الأحـداث الـتي أذكرهـا في تلـك الرحلـة والـتي زادت مـن حـبي وإعجـابي بوليـم، هـي دعـوة رجـل الأعمـال المعـروف خليـل عثمـان لنـا إلى العشـاء في منزلـه، وقـد كان مقيمًـا بالكويـت، وفي أثنـاء حفـل العشـاء قدمـت أسرة خليـل عثمـان هديـة خاصـة لوليـم أندريـا بمناسـبة فـوزه بلقـب أفضــل لاعــب في البطولــة العربيــة، إلا أنــه رفــض الهديــة، اعتـذر بـكل أدب قائـلًا لهـم: لـم أحقـق البطولـة وحـدي فقـد كان معـي في الميـدان زمـلاء ولولاهـم لمـا وصلنـا إلى البطولـة، وكانـت لفتـة بارعـة منـه توضـح معدنـه الـذي نتحـدث عنـه".

أحبتـه الجماهـير وتكونـت حولـه حلقـة واسـعة مـن المعجبـين والمعجبـات والأصدقـاء، فـكان منزلـه يمتـلئ يوميًّـا بمثلهـم، ووسـط هـذه الهالـة "كان الغـزال الأسـمر يلبـس فنيلـة بيضـاء وبنطلـون جينـز، ولا يبـدل ذلـك إلا نـادرًا. كان يحيـط معصمـه الأيمـن بسـبيبة زراف معقـودة (كلنـا كان يفعـل ذلـك). كان يسـير بخفـة ويمـر بـين النـاس وكأنـه نسـمة عابـرة في يـوم فيـح. كان يرقـص وكان يغـني. كان خشـنًا في مظهـره، رشـيقًا في لعبـه. كـرة السـلة تتـوق إليـه وتهجـع عنـده، وتـأبى أن تفـارق كفيـه" ! "كلكم

تشتلون الورد على مقابر الخرطوم وأنا بحبكم"!، هكذا كان يصيح وليم بهذه اللازمة حينما يبلغ قمة التواصل والبهجة والليل والناس والخرطوم والغناء الحميم"!

أما صديقته وصديقة أسرته على المستوى الاجتماعي منال سليمان، فتضيف موضحة للكاتب قائلة: "تعرَّفت وليم سنة ١٩٧٥، كان أكثر من عادي لا يلفت انتباه أي شخص، وعكس بساطته في الشخصية، كان يعشق أن يتعلم وكان ذكيًّا في التعلم، أتذكر أننا كنا نمشي إلى حوض الجامعة للتدريب على السباحة مع الكشافة البحرية، وسبحان الله وليم كان لا يسبح، ولكنه في أقل من شهر تعلم السباحة على يد ممدوح مصطفى، وتفوق علينا جميعًا، كان مدربنا في الكشافة لكرة السلة والكرة الطائرة، وكان أصلًا يلعب مع الفريق الأولمبي، وكان من ضمن أعضاء منتخب السودان في السلة، وبدأ أيضًا يمارس هوايته الموسيقية وسرعان ما تفوق فيها. كان ذكيًّا جدًّا يجيد أي شيء يبدأ في تعلمه، كان طموحًا ولكن بهدوء وكانت شخصيته خجولة مع البنات، بالرغم من أن أغلبهن كنَّ يلتففن حوله سعيًا لتعرُّفه! وليم كان خليطًا من جنسيات مختلفة، زاملت شقيقاته شادية وآمال في المدرسة، كان يأتي عندنا في البيت في العصريات هو وممدوح ومحمود خضر، وكانت في منزلنا طاولة بينج بونج، وكنا نقضي الوقت في لعب البينج بونج، أذكر أن والدي كان دائمًا يتشاكل معه على شعره ولبسه، لكنه كان أبدًا لا يزعل منه ويقول له والله يا عم سليمان أنا بحبك وما ممكن أزعل

منـك! وتشـير منـال إلى حادثـة طريفـة لـه ولهـا دلالات تـبرز أكـثر معالـم شـخصيته، "إذ كنـا في يـوم مـا جلوسًـا في بالكشـافة البحريـة عـلى النيـل، فأحـضر ورقـة وقلمًـا وطلـب مـني كتابـة اسـمي باللغـة الإنجليزيـة وعندمـا اسـتفسرت منـه طلـب ألا أسـأل وسـوف يوضـح لي، ولمـا كتبتـه صـار يضحـك وقـال لي: أنـا كنـت متأكـد إن دا مـا أنـتِ بـس حبيـت أتأكـد، وعندمـا اسـتفسرت منـه عـن الموضـوع، أوضـح أن إحـدى الفتيـات بعثـت لـه برسـالة قالـت فيهـا إنهـا تحبـه وأنهـا قريبـة إليـه جـدًّا وهـو لا يحـس بهـا، وكتبـت اسـمه بالإنجليزيـة، بطريقـة مختلفة عمـا كتبتـه أنـا! في مـرة أحـب واحـدة في حياتـه، ولكنهـا كانـت مسـلمة وحالـت الديانـة بينهمـا، وأعتقـد أن هـذه هـي المـرة الوحيـدة الـتي تخاصمنـا فيهـا، إذ كنـت السـبب في إبعـاد هـذه الفتـاة عـن حياتـه، لأنـني أعرفهـا وأعـرف أهلهـا وكانـت صديقـه لي، فأفشـيت سرهـا لأهلهـا حـتى يحولـوا بـين زواجهما الـذي كان سيتسـبب في مشـكلات اجتماعيـة لهمـا ولأسرتيهمـا! قصـة وفاتـه كانـت غريبـة وتـرددت حولهـا شـائعات كثـيرة! لـم يكـن لديـه أصدقـاء كثـيرون، غـير ممـدوح مصطفـى ومحمـود خـضر وأولاد الكشـافة وفريـق الموسـيقى تبعـه، كان وقتـه كلـه في التمارين، كـرة السـلة والطائـرة والسـباحة، وفى المسـاء الموسـيقى، وفي أوقـات فراغـه فـإن أغلـب الأوقـات كان يقضيهـا في منزلنـا للعـب البنـج بونـج. لقـد كان صديقًـا طيبًـا جـدًّا، ولـم يكـن يتحـدث عـن نفسـه كثـيرًا، وكان يحـب الونسـة العاديـة والمـزاح، لـه الرحمـة" . وحـول قصـة فشـل زواجـه نظـرًا إلى ديانتـه، فـإن

محي الدين الخطيب أحد معاصريه يضيف للكاتب أن وليم أندريا، وحسب علمه، هو في الأساس كاثوليكي التدين وليس أرثوذكسيًّا كوالدته وعامة الإثيوبيين.

يؤكد معلومة صديقته منال حول علاقته العاطفية، صديقه الآخر أحمد رستم، إذ يشير للكاتب، بأن وليم قد ارتبط بفتاة مسلمة فعلًا "هي (أ، م، م) وأنه في سبيل الارتباط بها كان قد فكر في إشهار إسلامه، ولكنَّ ظروفًا قد حالت دون ذلك، إذ ارتبطت تلك الفتاة بمطرب جاز مشهور كان منافسًا لوليم ولا أعلم إذا تزوجا أم لا"!

وحول الانطباع السائد عن أخلاق الراحل الودودة يكرره صديقه كابتن أحمد خميس الذي تعرَّفه بملاعب السلة، إذ يضيف بأن وليم كان "يتصف بالأخلاق الحميدة والود والطيبة وكان صديقًا للجميع ويتسم بالمرح والابتسامة الدائمة تعلو وجهه، سريع البديهة سريع الحركة وفنانًا بمعنى الكلمة في كل شيء، لا تسمع منه إلا الكلمة الطيبة والحلوة" .

ويمضي موضحًا كيفية تعرُّفه الراحلَ قائلًا: "تعرَّفت الراحل وليم من خلال مباريات كرة السلة، عندما كان يلعب في منتخب مدرسة كمبوني، وفي الصف الثاني بالنادي الكاثوليكي (الأولمبي) حاليًّا، ومن ثَمَّ انضم إلى المنتخب الوطني الأول، وزادت علاقتي به من خلال اللعب، فكنت أُكلَّف باللعب معه دفاع (رجل لرجل) نظرًا إلى حركته السريعة وتصوياته

المتقنـة، وانضـم إلى المنتخـب الوطـني الأول في عـام ١٩٧١ كأصغـر لاعـب، وكنـا آنـذاك نسـتعد للمشـاركة في تصفيـات المنطقـة الخامسـة في إفريقيـا".

ويصـف آخـر وليـم وبعـض أنـداده قائـلًا: "وليـم أندريـا كان نتاجًـا لهجـين سـوداني إغريقـي إثيـوبي، فجـاء فيـه مـن كل ذلـك وكثـير مـن الملامـح الإثيوبيـة، وكان رشـيق القامـة ريـاضي الجسـم (ليـس كأخيـه ممتـلئ الجسـم) بارعًـا في لعبـة كـرة السـلة كبراعتـه في العـزف والغنـاء"

في حقبـة مـا، ونتيجـة لظـروف غـير معلومـة، توقفـت فرقـة وليـم مـدة، فانتظـم مـع فرقـة الكونكـوردس، وهنـا يوضـح صديقـه ومؤسـس فرقـة الكونكـوردس، يوسـف عبـد المنعـم هـذه الجزئيـة قائـلًا: "في تلـك الأيـام كنـا في فرقـة الكونكـوردز نواجـه حفـلات للكريسـماس ورأس السـنة، ولـم يكـن لدينـا مغـنٍ للفرقـة، فاقترحـت بـأن ينضـم إلينـا وليـم الصديـق، ووافـق جميـع أعضـاء الفرقـة. اتصلـت بـه وانضـم إلينـا في أواخـر ١٩٧٢ وحـتى الشـهور الأولى لعـام ١٩٧٣، بعدهـا سـافر إلى إنجلـترا وأحـضر معـه بعـض الأجهـزة والآلات وجمـع فرقتـه مـرة أخـرى" .

ويضيـف الموسـيقار نـادر السـوداني "كانـت فرقتـه تتكـون بالإضافـة إليـه وشـقيقه بـوب، مـن عـازف البـاص جيتـار بوشـوب، المنحـدر مـن أصـول يونانيـة، ويعـزف عـلى الكيبـورد، ثـم السـموأل فضـل نـاصر في الترومبيـت، وملاكـو في الجيتـار"

ملقيًا مزيدًا من الإضاءات على بعض عازفي فرقة وليم "السموأل فضل ناصر من أبناء معهد الموسيقى والمسرح، يجيد العزف على الترومبيت التي درسها بالمعهد، وهو صاحب اللازمة الشهيرة في أغنية كفاية مزاح للراحل وليم أندريا، إذ كان من ضمن أعضاء فرقة وليم، وشارك في تكوين فرقة البلوستارز في حقبة الفنان الرائع الدرديري".

مؤكدًا أن نجاح تجربة وليم أندريا، في ذلك الزمن الوريف - كما يسميه - له أسباب متعددة، فيشير إلى حقبة منتصف السبعينيات، التي اشتهرت فيها لونية الغناء، التي يقول إنها عرفت مجازًا بالجاز! إذ تغنى فيها وليم بموسيقى الروك والبوب ذات الطابع الغربي. وينبه إلى أن إدارات الأندية التي كان وليم وفرقته يمارسون أنشطتهم الموسيقية من خلالها، تدعم مثل هذه الأنشطة، وتوفر لها كل المعينات في سبيل تطوير وتجويد أدائها، وذلك بسبب أن كثيرًا من أعضاء ورواد أندية متعددة بالعاصمة كالسوري، الألماني، التنس، الكشافة البحرية، وغيرها، تهتم في الأساس، بمثل هذه اللونية من الغناء الموسيقي، "فتجتهد إدارات تلك الأندية بتوفير الأجهزة الموسيقية المتطورة للموهوبين من أبناء أعضائها، وكانت أغلبية الأعضاء يعشقون هذه اللونية من الفن، من خلال امتلاكهم كل ما هو جديد في عالم الغناء الغربي، أسطوانات، أو شرائط الكاسيت التي تحتوي على أحدث الأغاني الغربية في ذلك الوقت" ثم يمضي الموسيقار نادر موضحًا أن أعضاء الفرق الغنائية السودانية يحتكون

بخـبرات وتجـارب الفـرق العالميـة الأوروبيـة، الـتي كانـت تسـتضيفها تلـك الأنديـة، في مواسـم الاحتفـالات السـنوية، ومـن ثَـمَّ يكـون "الاحتـكاك المبـاشر بـين مواهـب هـذه الـدور بالعـازف الأجنـبي وتبـادل الخـبرات الـتي لهـا دور كبـير في تفتـح مداركهـم ومعرفـة العديـد مـن الأسرار الـتي لـم تكـن متوفـرة لديهـم في ذلـك الوقـت" كما يؤكـد أن ظهـور موسـيقى "الفرانكو عـرب الـتي لاقـت نجاحًـا كبـيرًا داخـل هـذه الأنديـة مثـل أغـاني الفنانـة العالميـة داليـدا وفرقـة المصريـين وفرقـة د. عـزت أبـو عـوف وغيرهـا، كانـت حافـزًا لوليـم في تأليـف العديـد مـن الأغـاني".

ويضيـف الموسـيقار ومطـرب الجـاز الشـهير صـلاح بـراون للكاتـب إضـاءات مكثفـة أخـرى حـول تجربتـه شـخصيًّا مـع هـذه اللونيـة مـن الموسـيقى، وبعـض ذكرياتـه مـع الراحـل وليـم أندريـا قائـلًا: "عـام ٦٩ بـدأت التدريـب عـلى آلـه الدرامـز بفرقـه أضـواء بحـري، لمؤسسـها الأسـتاذ بـدر الديـن عـوض، كنـت أردد الأغنيـات الإنجليزيـة الخاصـة بالفنانـين راي جارلـس وسـام كـوك، وعندمـا تـرك الأخ الفنـان كمـال كيـلا الفرقـة ورجـع لمـصر لإتمـام دراسـته الجامعيـة، طلـب الأخ بـدر الديـن أن أغـني، بعـد تـردد نجحـت وأصبحـت مغـني الفرقـة، عندمـا ظهـر الفنـان جيمـس بـراون، أدت الصـدف دورًا في حصـولي عـلى أول أسـطوانة لـه بواسـطة جـاره لي كانـت تعمـل مضيفـة بالخطـوط السـودانية، فكانـت الانطلاقـة وكان الاسـم الـذي أطلقـه عـليَّ الأسـتاذ بـدر الديـن. ثـم فيمـا بعـد فرقـة الأفارقـة

وفـرق موسـيقية أخـرى، إلى أن كونـت فرقـتي الخاصـة عـام ١٩٨٨ وسـجلت أول إنتـاج فـني عـام ٢٠٠٠".

وحـول علاقتـه بوليـم أندريـا يضيـف بـراون للكاتـب: "تعرفـت المرحـوم عـن طريـق صديقـي وود حلتنـا بالعباسـية جارلـس بـوث ديـو لاعـب كـرة الباسـكتبول عندمـا سـكن مـع أقربائـه بمـنزل الأسـتاذة فاطمـة طالـب، وعندمـا دخلـت المجـال الفـني توطـدت علاقتنـا أكـثر، وخاصـة ابـن خالتـه ملاكـو، الـذي اسـتمرت علاقـتي بـه إلى أن توفـاه الله العـام السـابق، لا أعتقـد أن النـاس تختلـف عـلى مهـارات وليـم الموسـيقية، سـواء عـلى آلـه الجيتـار أم مهاراتـه الإبداعيـة في التلحـين، وطبيعـي أن مـن يملـك القـدرة عـلى العـزف والتلحـين يملـك مـن ثَـمَّ القـدرة على وضـع اللحـن الـذي يناسـب صوتـه وإمكانياتـه في الأداء، فوليـم كان مـن مدرسـة موسـيقية سـودانية جديـدة متكاملـة، أضافـت الكثـير مـن المزايـا لمـا يسـمى بالأغنيـة السـودانية الحديثـة، كان يمكـن أن يعـبر بهـا مـن المحليـة للعالميـة، خاصـة معظـم الـدول مـن حولنـا لـم تكـن قـد وصلـت لهـذا المسـتوى، خاصـة مـصر ودول الخليـج، لـولا موتـه الغـادر والمفجـع، عندمـا أُغتيـل كنـت بليبيـا وقـد سـمعت روايـات مختلفـة حـول وفاتـه عنـد عـودتي.

وليـم كان شـخصية غـير عاديـة، بالرغـم ممـا ترسـمه ملامحـه مـن هـدوء، وكنـا نحـس بـأن لديـه كاريزمـا القائـد الـذي يقـود جنـوده أينمـا شـاء دون قهـر، وكانـت لديـه طاقـات وقـوة تحمـل

كبـيرة، كان يقـف بالسـاعات يغـني دون ضجـر أو ملـل، فوليـم شـخصية لا يمكـن أن تتكـرر مـرة أخـرى في نظـري، ومـع كل الأسـف فـإن الحكومـة والدولـة تجاهلتـه، وكـذا أصحابـه لـم يهتمـوا بأمـر تكريمـه مطلقًـا، وكنـت قـد حاولـت وأنـا رئيـس للاتحـاد تنظيـم مهرجـان تأبيـني لـه، إلا أن أخيـه لـم يسـمح لنـا بترديـد أغنياتـه لموقـف اتخـذوه سـالفًا عـلى مـا يبـدو! لكنـا لا نـزال سـاعين إلى إقنـاع الجميـع بـضرورة الاحتفـاء بـه، أكيـد أن هـذا الجهـد بالكتـاب يـا أسـتاذ حسـن هـو بمنزلـة رد اعتبـار وتخليـد لذكـراه، وتعريـف للجيـل الجديـد بـدور وليـم أندريـا في تحديـث الأغنيـة السـودانية وأسـلوبه مـع فريقـه في ملاعـب الباسـكت".

ثـم إنـه غـنى أيضًـا مـع البلوسـتارز! فزامل عاصم زيـن، محجوب مصطفـى شـقيق الفنـان صـلاح مصطفـى، والمرحومـين عمـر قيـلي وأبـو رزقـة، وقـد حـدث في مـدة عزفـه مـع البلوسـتارز أن حـلَّ المغـني الأمريـكي المعـروف، جيمـي كليـف بالسـودان، وللمصادفـة العجيبـة نـزل بفنـدق الميريديـان بالخرطـوم، في الأمسـية نفسـها الـتي أحيـت فيهـا البلوسـتارز حفلهـا الغنـائي، بصالـة الفنـدق الموسـيقية، فانبهـر بهـا جيمـي إذ تفاجـأ بـأداء الفرقـة الباهـر والممـيز لأغنياتـه وألحانـه، حـدًّا جعلـه ينضـم إلى الفرقـة ليغـني معهـا في تلـك الأمسـية! فنشـأت صداقـة جمعـت بينـه وبـين جميـع أعضائهـا، وكان أكثرهـم محبـة إلى قلبـه وليـم أندريـا. علمًـا أن جيمـي كليـف وفي أثنـاء تلـك الزيـارة للسـودان كان قـد ألـف أغنيتـه الـتي عرفـت فيمـا بعـد باسـم

Bob Man is Coming وكانت من أوائل أغنيات الريغي التي ظهرت عام ١٩٧٠، وقد استوحى أنغامها وإيقاعها من ريزم وإيقاعات نوبة ودفوف حلقات الذكر في منطقة حمد النيل غرب مدينة أم درمان، التي زارها المطرب العالمي وشغف بها! وحول زيارته يوضح للكاتب نادر السوداني المزيد من هذه الزيارة، مشيرًا إليها أنها كانت بدعوة من دكتور متوكل لهذا الفنان الجميل لإقامة حفلات في السودان، وكانت أولى هذه الحفلات في فندق مريديان الخرطوم والجدير بالذكر أنه ألَّف البوم "نوبة مان" بعد زيارته لحمد النيل بأم درمان واستهوته إيقاعات الذكر، وكان الألبوم ناجحًا جدًّا، مؤكدًا أن كليف تعرَّف "التنوع الإيقاعي والحالة الروحانية التي سيطرت على وجدانه وهو أجنبي، جعلته يرى ما لم نرَه نحن في موروثنا الثقافي الجميل المتنوع، كما شاركت فرقة البلوستارز، وكانت خير مصاحب له في جولته".

أشواق لجماليات الحياة ووجودها الإنساني

ذاك زمـن زاهـي رغـم ضيـق مسـاحات التعدديـة، والحريـات العامـة في التعبـير وكلام السياسـة! ولكنـه مـن جانـب آخـر، كان زمنًـا نَدِيًّـا عـن حـق، إذا مـا قارنتـه بالزمـن الحـالي، الشـاحب في دنيـا السـودانيات والسـودانيين! زمـن كان جيلـه يعـبِّر فيـه بحراكـه، عـن الوجـه الإنسـاني لتطلعاتـه، في ظـل توتـر اجتماعـي وسـياسي، بـدأ يطـل برأسـه رويـدًا، فشـكل فيمـا بعـد الأسـاس المـادي، لانتفاضـة مـارس - أبريل الشـعبية المجيدة عـام ١٩٨٥! والـتي أطاحـت بالديكتاتوريـة وحكـم الفـرد، تلـك الانتفاضـة الـتي أدى فيهـا جيـل ذلـك الزمـن وشـبابه الباسـل، دورًا رياديًّـا متقدمًـا أسـهم في نجاحهـا، ومـرغ أنـف الديكتاتوريـة العسـكرية الثانيـة في الـتراب، لتتسـع آفـاق الديمقراطيـة والحريـات العامـة في كل ربـوع البـلاد، أو هكـذا كان يأمـل جيـل ذلـك الزمـن! الإسـلو دانـس والديسـكوهات والبارتيهـات، موسـيقى الإسـتريوهات عاليـة الصـوت وهجيـج "الجبجـب يـا جبجـب" والبهجـة عاليـة الفـرح والمـرح، كان اقتصـاد السـودان لـم يبـدأ في الانحـدار بعـد، كان الجنيـه الإسـترليني يسـاوي ٩٧ قرشًـا والـدولار الأمريـكي يسـاوي ٣٣ قرشًـا، زمـن كانـت فيـه "البنـات

الخرطوميات يقلن للقمر قُم وأنا أقعد مكانك! ذاك زمان البراءة والجمال وزهو الصبا (...) لم يكن فقه الضرورة برز بعد. ولم يكن لبنك فيصل الإسلامي فرع في السودان! والبحر الأحمر كان مسافة حجة أو عمرة وعودة، وكانت مروي بوكشوب تبيع الكتب باللغة الإنجليزية. وكانت بانوراما تبيع الكتب والمجلات السوفيتية باللغة العربية"! . أفخم فرق الموسيقى الأوروبية تستقبلها الخرطوم، لتنشر الأداء والفرح الراقي في أجواء عاصمة اعتادت، ومنذ أوائل القرن الماضي، أن تحتضن جميع الملل والنحل وكل الأديان بسماحة وطولة بال، مسلمين سنيين وشيعة وأنصار سنة وأنصار أمة وأنصار سلام وأنصار كرة هلال مريخ موردة، شيوعيين وجمهوريين ولادينيين، مسيحيين أقباط وأرمن ويهود وشلك ودينكا ونوير ونوبة، أخلاط من البرنو والفلاتة والأفارقة والأمريكيين والأوروبيين والآسيويين والهنود والمجوس.. أديان من كل مشارب الأرض، مشارقها ومغاربها، احتضنتها الخرطوم بحنان ومودة ورحمة وابتسامات عطرة، فيسهرون فيها حتى مطالع الفجر، ثم يتوزعون في اليوم التالي على البسيطة، كل إلى شؤونه ودقات قلبه، فلم ينقطع أذان لفجر أو تراتيل لكنيسة، لم تتأخر شعيرة، ولم تُلغَ فريضة، ما انقطعت حلقات أذكار أو انطفأت نيران أدعية أو تهجد، ولم تنتظر المساجد أو الكنائس من يملأها. فلقد كان الدين لله.. والوطن للجميع ومعه الفرح والترويح!

إن ما يؤسف له مرة أخرى في هذا المقام، تلك الظاهرة

التي تحاول أن تضع اليوم، الرقص والغناء والفرح في خانة واحدة مع "المجون والتفسخ"، ومن ثَمَّ تلحق جميعها ضمن المواد القانونية المانعة والزاجرة والمدينة لهذا الفعل أو ذك، فقد تابع الناس تلك الحملة الغريبة التي قادها بعض أدعياء حراس الفضيلة ضد فاعلية أقامها فرعٌ سودانيٌّ لمنظمة أمريكية تسمى "بيس أكاديمي" لصالح صندوق دعم ورعاية المبدعين بحفل استعراضي راقص بقاعة الصداقة وبالتعاون مع وزارة الثقافة والإعلام، إذ انبرى بعض خطباء الجوامع، منددين بالحفل في هجوم شنيع على الرقص والراقصين، إذ أشار أحد هؤلاء صراحة وهو يقول "أعلم يقينًا بأن أقصر الطرق لصرف الشباب عن مكارم الأخلاق وعجلة الإنتاج والإبداع في مجال التقنية والإمساك بقيادة هذا الكون بالعمل وتسخيره لخدمة الإنسان هو الرقص". وما هو أفدح أنه يعتبر الرقص قضية كبرى ضمن "قضية الأخلاق التي سار" من أجلها آلاف الشباب إلى سوح العمليات في الجنوب وغيره، لتبقى في الأرض ناصعة زاهية"! ثم إنه يفرق بين الرقص الذي فيه "رقص الفروسية والشهامة والرجولة"، وبين رقص موسيقى الجاز والراب والهيب هوب "البريك دانس"! وهو المعبر عن الخيبة والخزي والفجور والميوعة. أو كما قال!

ثم انبرى آخر هو السيد أمين الفكر والثقافة بالمركز العام للمؤتمر الوطني، قائلًا دون أن ينتبه لموقعه الذي يمثله داخل حزبه "وأصلًا رقصنا السوداني فاااااااااضح أكثر مما

رأيت عند هؤلاء. يشهد الله أن الرقص السوداني أكثر إباحية بمئات المرات من أنواع الرقص المذكورة أعلاه، وليس فيها اختلاط على فكرة. كدي نمنع الرقص في بيوتنا ومناسباتنا وزواجاتنا، واللبس الذي يلبسنه بناتنا في مناسباتنا الفرايحية"! غير أن أكثر التصريحات المدهشة والصادمة في هذا المنحى قد جاءت من أمين دائرة الفنون والآداب بالمؤتمر الوطني، الذي صرح قائلًا: «إن هذا الحفل يتنافى مع عادات وتقاليد السودان، وإن موقفه من الاحتفائية كان واضحًا، وإنه أعلن رفضه قيام الحفل"! وما قائل هذا الحديث والرأي المؤسف إلا مطرب الجاز الشهير الأستاذ الجيلاني الواثق! علمًا بأن المطرب الجيلاني الواثق، وكما جرت الإشارة إليه في هذا البحث بأنه قد أسهم بفرقته الفنية ضمن تلك الفرق في انديات غناء الجاز والرقص بالبلاد، وحسب علمنا أنه لا يزال يغني ولا تزال فرقته الغنائية تُسهِم في الحفلات العامة والخاصة، ولم نسمع أنه هجر الغناء أو أعلن اعتذاره وتوبته النصوحة عن مثل هكذا فعل! .

كل هذا وذاك حدا بالكاتبة منى عبد الفتاح لتناول الظاهرة عبر عمودها الصحفي الذي أشارت فيه منبهة لخطورتها بإبرازها لخبرين محددين بشأن الرقص، إذ تضعه بعض الجهات في خانة الجناية، الخبر الأول هو (القبض على رجال أعمال وطلاب في حفل ماجن بسوبا "...") واستقصت الشرطة الحقائق وبمداهمتهم ضبطوا في حالة رقص). والخبر الثاني هو (داهمت شرطة النظام العام إحدى الصالات الشهيرة

بالخرطـوم وألقـت القبـض عـلى سـتة متهمـين بينهـم طـلاب جامعـات وفنـان معـروف في حفـل حنـاء أقيـم دون اسـتخراج تصديـق "..." وبمداهمـة الصالـة ضُبِـطَ المتهمـون في حالـة رقـص). مشـيرة إلى أن هـذه البلاغـات "دُوِّنَـتْ تحـت أشـهر مادة في القانـون الجنـائي لسـنة ١٩٩١م وهـي المـادة (١٥٢) ونصهـا هو: "مـن يـأتِ في مـكان عـام فعـلًا أو سـلوكًا مخـلًّا بـالآداب العامـة أو يتزيـا بـزي فاضـح أو مخـلٍّ بـالآداب العامـة يسـبب مضايقـة للشـعور العـام يعاقـب بالجلـد بمـا لا يتجـاوز ٤٠ جلـدة أو بالغرامـة أو بالعقوبتـين معًـا" مشـيرة إلى أن المـادة مطاطـة وواسـعة لا تحديـد فيهـا لمعنى السـلوك المخل بـالآداب العامة، وقـد ناشـدت واضعـي القانـون والشرطـة بتوضيـح هـذه العبارة والأسـئلة المتعلقـة بهـا، ليكـون أسـهل بكثـير مـن المجهـود الـذي تشـكل بـه الشرطـة فرقهـا ومتحركاتهـا حـتى تداهـم حفـلًا تسـميه ماجنًـا لأنَّ بـه "متلبسـون في حالـة رقـص"! وقـد أشـار الفنـان شرحبيـل أحمـد للكاتـب ضمـن الإفـادات المشـار إليهـا أعـلاه لظاهـرة التعـدي السـافر عـلى الفـرح وموسـيقاه وغنائـه، بوقائـع جـرت لعـدد مـن المطربـين بالعاصمـة والأقاليـم – وهـو ضمنهـم – حينمـا يُفاجـؤون في أثنـاء تأديـة وصلاتهـم الغنائيـة في الأفـراح العامـة بشرطـة النظـام العـام وهـي تداهـم مـكان الحفـل بمجـرد حلـول السـاعة الحاديـة عـشر ليـلًا زمـن "صمـت المايـك قانونيًّـا" وتجـذب بـكل إهانـة الفنـان مـن قميصـه ليترجـل مـن عـلى الخشـبة قائلـة لـه: "يـا زول انـزل"! هـذه وغيرهـا مـن المضايقـات الـتي عـادى بهـا نظـام الإنقـاذ

أهـل الفـن والطـرب، حـدًّا أقـدم فيـه أحـد "المهووسـين" عـلى الهجـوم عـلى دار اتحـاد الفنانـين فيغتـال المطـرب المسـالم خوجـلي عثمـان، ويلحـق جراحًـا كادت تفتـك بالمطـرب عبـد القـادر سـالم!

ومـا هـو جديـر بالانتبـاه أن الأخبـار في هـذا الشـأن تـأتي عـلى شـاكلة أن الرقـص في حـد ذاتـه قـد أُدرِج سـلفًا في خانـة الممنـوع والممـارس سرًّا، غصبًـا عـن رقبـة القانـون والأعـراف والتقاليـد، وذلـك حينمـا تتـم الإشـارة إليـه بطريقـة ملتبسـة في صياغتهـا الخبريـة، بـأن مجموعـة قـد "ضُبِطَـتْ وهـي تمـارس الرقـص" علمًـا بـأن شريطًـا لفيديـو شـهير يُتـداوَل ويُعـرَض - ولا يـزال بالميديـا - للسـيد رئيـس الجمهوريـة وهـو يمـارس "الرقـص والغنـاء علنًـا" وبمعيته حشـد مـن الرجـال والنسـاء "المختلطين" وهـم يعـبرون عـن فرحهـم الطبيعـي والمـشروع في مناسـبة طروبـة لأحـد أقربـاء أو معـارف "الريـس"!

وتناولـت المجتمعـات - ولا تـزال - واقعـة الاعتـداء عـلى مكتبـة الإذاعـة والتلفزيـون عـن طريـق تسـجيل مـواد جديـدة في أشرطة فنيـة نـادرة، وهـذا مـا أضـاع تراثًـا قيمًـا مـن مـواد غنائيـة وفنيـة ثقافيـة قـل أن تتوفـر مـرة أخـرى! في هـذا يحـكي أحـد المتابعـين لموسـيقى الجـاز، وهـو يـاسر عـوض يقـول في مداخلـة لـه بقـروب "فـرق جـاز السـودان" عـلى الفيـس بـوك: "كان يوجـد تسـجيل نـادر فيـه لأغنيـة كفايـة مـزاح بصـوت بـوب أندريـا، والحكايـة إنـه تحصلـت عـلى شريـط رييـل قديـم (احتفـظ

بالمصدر) وسجَّلته لديقتال ميديا - وكانت المفاجأة في نهاية الأغنية برنامج مسجل عن جهاديات وأغاني الشهيد والباقي معروف طبعًا أنها محاولات لطمس التاريخ يؤسفنا أنها نجحت، فعلينا بالتوثيق ثم التوثيق"! ولقد بلغ الاستهتار بالتعدي على بدائع الأغنيات السودانية التي تدرج ضمن عيون الشعر السوداني، إذ امتدت أيادي التتار والمغول على أشرطة تسجيل نادرة في مكتبة الإذاعة السودانية لتقصيها من شيوع الترديد عبر الإذاعة باعتبارها تحمل مضامين تتعلق بتمجيد وإباحة (السكر) و(المجون) فأوقفوا بث روائع غنائية من أمثال (خمر وليل وشفاه) رائعة الشاعر الراحل البديع حسين عثمان منصور، التي يصدح فيها المطرب سيد خليفة قائلا: (يا سقاة الكأس من عهد الرشيد)، فيحيلوا ابتسارها لكي تأتي غصبًا عن الشاعر والمضامين الاجتماعية والسياق التاريخي الذي أنتج ظاهرتها والشعر الذي وثق لعهدها بقوافي ممسوخة ومنسوخة وتلفيقية من شاكلة (يا رواة الشعر من عهد الرشيد)! حدًّا أفصح فيه المطرب الراحل الجميل صلاح محمد عيسى بأنه ونظرًا إلى كثرة أغنياته في المجالات المعنية التي استهدفتها (حملة حماية الفضيلة) فسوف لن تتبقى له سوى رمية واحدة في الإذاعة)! علمًا أن شر البلية في هذا المقام يكمن في واقعة منع أغنية للشاعر المتصوف الحبيب قرشي محمد حسن باعتبارها تدخل ضمن شعر (الخمريات)، استهدفت أغنية (خمرة العشاق) التي غناها له المطرب الراحل عثمان حسين، يقول الصحفي معاوية

جمال الدين الذي أورد تفاصيل الإيقاف قائلًا: إن من أوقف بث الأغنية "اكتفى من القصيدة بـ (عندما تغفو الأزاهر في الربى النسيم الحلو يهفو رطبًا والندامى يسكبون العنبا يرشفون الكأس حبًا حبًا، فاذكري صبًّا صريعًا مستهامًا لم تعد كاساته إلا حطامًا) فكان حتمًا عليه ألا يعلم أن قرشي محمد حسن المتصوف ابن الأسرة الأنصارية الودنوباوية رئيس تحرير جريدة النيل، التي كان يصدرها السيد عبد الرحمن المهدي، مقدم برنامج المدائح النبوية في الإذاعة، ناشر المدائح النبوية في كتاب، لم يكن يقصد الخمرة المعروفة، لكن مدير الإذاعة (الداعشي) لم يصبر حتى نهاية قصيدة خمرة العشاق، ليستمع لما يقول الشاعر المتصوف (نشوتي في الحب خمر قد تسامى، عجزت عن عصرها أيدي الندامى، فاصرفوا الكاسات عني والمداما)، و(المدام) لعلم المدير الداعشي هي الخمر، فإلى أين ومن أين؟!".

على كل فقد كانت حقبة السبعينيات، زمانًا لجيل شكلته حقبة سابقة، في ستينيات القرن الماضي، وبزخم ثوري تجلى في بروز حركات التحرر الوطني، في مختلف بقاع العالم، واشتد فيه العداء سافرًا ضد سياسات الولايات المتحدة الأمريكية في أعلى مراحل إمبرياليتها! استشرافًا للعدالة الاجتماعية وشوقًا لجمال الحياة والوجود في أفقه الإنساني، فشكل الشباب من كل بقاع العالم، ترياقًا مضادًا للحرب في فيتنام ولاوس وكمبوديا، وتراصت صفوفهم في ربيع ثوراتهم الطلابية، التي شهدتها غالبية الدول الرأسمالية الأوروبية،

استهدافًا لبرجوازيتها ورساميل اقتصادياتها الجشعة البشعة! تمردًا ورفضًا لم يكن شباب السودان بمعزل عن تأثيراته فيهم، فعبروا عنه بأغنياتهم لشباب كوريا وجزائر جميلة بوحريد، للملايو.. ولباندونق الفتية! لكونغو لومومبا، شجبًا لمقتله على يد "الانفصالي" تشومبي، وتمتينًا لأواصر التضامن مع شعوب العالم!

وما إن حلت حقبة السبعينيات، حتى عبروا عن كل هذا الحراك والمفاهيم الثورية فيما بعد، بآخر صيحات الموضة وقلق الشباب، التي تجلت في أزيائهم المتعددة القيافة وفاقعة الألوان واللطافة! وظهور آخر صيحات الموضة في الشعور المنسدلة والكثة، الباروكات والأفرو وأنجيلا ديفز والويسكرس والبوقوجي والرستا فاراي، الجينز والشارلي، أقمصة الكاروهات وتحرمني منك والماكس والميني جيب، أحذية الكموش والدبابة وتومو شيك وساعات الرومر والسيكو، وسبائب الزراف والخيول على المعاصم، أقمشة التريفيرا والإسموكن والكريمبلين، رقصات الجيرك والجالوا والكشف والترم ترم، ويا تيتي. دعاية وإعلانات سبعينيات القرن الماضي بكل مباشرتها وسذاجتها وبساطتها "بيب بيب بيب، لبان لو ضقتو وطق بيطق، لبان بازوكا وماكس وسندباد" "هههها، كلبين" "زيت عافية للصحة والعافية" "أحذية تومو شيك بصوت أبو داؤود" و"محلات عبد الله شلقامي" قريب وقفة العيد "صابون سافون" "معجون كولينوس" "حلويات سعد" "سوبر ريد الجديد ذو القوة

الثلاثية للإبادة ليست واحدة ولا اثنتان بل ثلاث"، ياه! كان بحق "زمنًا زين والشعر فيهو مغطي الأضنين"! كما يصفون تلك السبعينيات.. وعن تلك السبعينية عبر الفنان طارق الأمين بكل حنية ومحبة صادقة عندما انفتح دولاب ذكرياته الساحر على مصراعيه،، يقول: "مدرسة الخرطوم الجديدة الثانوية وجمعية الموسيقى والكرنفالات والمهرجانات والمعلم الفاخر والمعامل المعدة والأركان السياسية بالمدرسة والفخامة والدسامة في كل شيء والوسامة ومظاهرات توت توت نميري عتود، الباصات الفخيمة والسندوتشات والأغاني الطاعمة والقيم التربوية الباذخة وبنات الثانوية بالقميص السماوي الزاهي ونظرات الحب اللطيف والغزل في مواقف المواصلات، أساتذة التربية الإسلامية الصادقين الأنقياء ومعلمي اللغة العربية الأدباء ومعلمي العلوم والرياضيات، الهاي كواليتي وعبد العزيز المبارك وطريق الشوق مشيناه وجاز الديوم وحموري وسامي عز الدين ومصطفى النقر وعربات سيهان بيرد الجديدة تخطف أبصار الصبية والفتيات، الضحكة والجنيه أب عمه والريال المرحمن وشلن الفطور وبكاسي المواصلات، البرنسي وباسطه سلا وآيسكريم لولي وعجلات الرالي والفلبس والهلال والمحلة والمريخ وعبده الشيخ وزغبير ومجلة سمر وباصات أبو رجيله و" ... "ومهدي مصطفى الهادي ولقطات فريد عبد الوهاب ومتوكل كمال والصحافة والأيام ونور الدين مدني والناس والحياة ومصطفى سيد أحمد وسهرنا الليل وكملنا وأحذية

تومشيك للرجل الشيك وجاز البلوستارز ومطعم الغار وليلى المغربي ومسلسل العبقري ودلاس والزنجي وسينما النيلين وكلوزيوم وخرطوم غرب وبلو نايل وقميص الجامايكا وفراش بكا بوب مارلي في الديم وحبيبات الصبا النديات وتهذيب العساكر" وها هو الكاتب عوض مبارك يستعرض بصفحته في الفيس بوك روعة الحياة الاجتماعية لتلك الحقبة بعنوان (فترة السبعينيات من جماليات سبعينيات القرن الماضي) إذ يقول: "كنَّا ونحن صغارًا نتقاطر أولاد وبنات صوب النيل، حيث الرمال البيضاء الممتدَّة بامتداد الشاطئ، وحيث أشجار الصفصاف الخضراء اليانعة، وتشكيلات من طيور تحط للحظات ثم تطير محلِّقة في الأفق اللامتناهي لتخلفها تشكيلات أخرى، ومراكب صيادين تقرقع كسولة قرب الشاطئ، وقوارب بخارية تشق عباب الماء بصخب، وشموس متوهِّجة تلقي بأشعتها على الكائنات فتزيدها ألقًا وبهجة. كنَّا نذهب لمشاهدة حشود الجاليات الشرقية والغربية الناصبة خيامها في محاذاة الشاطئ على قيد خطوة من الماء، احتفاءً بأعياد شم النسيم والكريسماس، رجال متسامحون حيال فضولنا المتأجج حيال ما يأتون به من عجائب، نساء يمرحن ويتمايلن طربًا على أنغام صنوف موسيقية شتى، أطفال لا يكفون عن اللعب والزعيق، شباب يجرون ألعابًا ومسابقات لا تنتهي. ونحن في خضم تلك الفسيفساء الإلهية الرائعة نحملق بمزيج من الدهشة والافتتان. ومع إطلالة الثمانينيات وقوانينها المشؤومة تفرقوا

في بـلاد الله لنلحـق بهـم نحـن أهـل الديـار". ويمـضي المخـرج السـينمائي وجـدي كامـل في تصويـر وقائـع حقبـة السـبعينيات قائـلًا: "كانـت الخرطـوم تنسـج غيومًـا مـن الأفـكار الطليعيـة الطموحـة بمزاحمـة مـن جيـل جديـد أطلـق عليـه التشـكيلي عبـد الله بـولا فيمـا بعـد (جيـل الأولاد أبـان مخلايـات). كنـا نتـوق إلى ملمـح سـياسي وواقـع اجتماعـي مختلـف ومتجـاوز بتصديرنـا لعلامـات تميزنـا في الملبـس والشـكل والـكلام، ننـوع قراءاتنـا ونعمـق مصادرنـا المعلوماتيـة وننتـشر في كل حـدب وصـوب دونمـا تـردد أو مخافـة لـشيء".

كانـت مواصـلات العاصمـة المثلثـة متوفـرة ومتنوعـة وفي متنـاول الأيـدي، تجـد مواصـلات شركـة أبـو رجيلـة جنبًـا إلى جنـب مـع الباصـات الأهليـة والـتي تغطـي جميـع أحيـاء العاصمـة، تجـد بـكاسي "البرينسـات" الـتي انفجـرت موضتهـا مـع ظاهـرة الاغـتراب في دول الخليـج والسـعودية، إذ أصبحـت وسـيلة لإعاشـة الأسر، بجانـب التاكـسي "الطلـب" والتاكـسي "الطرحـة" الـذي ينقـل خمسـة ركاب مـن المتنقلـين إلى وجهـة واحـدة مـن المحطـة الوسـطى أم درمـان إلى المحطـة الوسـطى الخرطـوم أو العكـس، وقـس عـلى ذلـك، مـن الثـورة أم درمـان وحـتى المحطـة الوسـطى أم درمـان، مـن السـتة أم درمـان وحـتى بانـت أو الفتيحـاب... إلـخ.

وبالنسـبة إلى السـيارات الخاصـة، فقـد انطلقـت في الشـوارع والطرقـات آخـر مـا أنتجتـه الـشركات الأمريكيـة واليابانيـة

والإيطالية والألمانية، وقد أنتجت ماركات كالمازدا، وسيهان بيرد والكريسيدا والبرلينا والتايوتا والكرونا والكرولا ونحوها. حقًّا لقد كانت عن حق وفعلًا مركبات فارهة تختف الأبصار في الشوارع!

في التعليم العالي كانت جامعة الخرطوم تتلألأ، وكان في جامعة القاهرة الفرع أجمل الأولاد والبنات، وكان المعهد الفني وكلية الفنون الجميلة ومعهد الموسيقى والمسرح، وبعض معاهد اللغة الإنجليزية، كانت المراحل الدراسية تنتشر في كل العاصمة المثلثة، مدارس ابتدائي وثانوية عامة وعالٍ، جُلَّها كانت حكومية أو مدعومة "مُعانة" المؤتمر الثانوية، التجارة الثانوية، محمد حسين، مدارس الكمبوني وسستر إسكوول والبعثة التعليمية المصرية، الخرطوم القديمة، الأم بنات، أم درمان الثانوية، الاتحاد العيا، بيت الأمانة، الأحفاد النهضة، النصر، الموردة الابتدائية، الرشاد الابتدائية، الأهلية الثانوية، الخرطوم الجديدة، بحري أولاد وبنات، مدارس الدوش والمهدية وتلودي وبكار والمليك، الابتدائيات بزيها الأزرق والثانوية العامة بالغامق البني والعالي بالسماوي، تجدهم ينتشرون في كل مسام العاصمة، يتكدسون في مواصلاتها، وخلف حافلات أبو رجيلة الصفراء والزرقاء وبكاسي البرنسيسة المريحة وطراحات النقل العام والباصات الأهلية ودراجات الرالي وياعم. كان كل ذلك يشكل زمن وليم أندريا وجيل وليم أندريا وأنداد وليم أندريا!

عبر عن ذلك الزمن عاصم زين عضو فرقة البلوستارز قائلًا: "أيام من المستحيل أن تُنسى، ذلك جيل من المبدعين، زاملت المرحوم وليم بالدراسة وجمعنا حب الموسيقى، وبقية أحبابي أعضاء فرقة البلوستارز، إذ بدأناها وختمناها كهواية وكمعين لبعض منا، هواية طابعها الرغبة والجدية في التجويد والاندماج مع شرائح ذلك الزمن الجميل، الشكر لمن لا يزال يذكرنا، رحم الله وليم أندريا، عمر قيلي، أبو رزقة" .

وقد أشار إليهم أيضًا أحد معجبيهم مشيدًا بفرقة البلوستارز وعازفيها، كقيلي وأبو رزقة وعاصم، باعتبارهم من أولاد بحري، ومعهم عدد من المجيدين المجودين "تصلهم الأسطوانة (لنج) من لندن في الصباح، وفي المساء تكون الفرقة (نضجت الشغل)، لدرجة أنك لا تفرق بين الأصل والتقليد، تسمع صولو جيتار فتعتقد أنه جيمي هندريكس، وبالطبع كانت لهم أعمالهم الخاصة الجميلة (...) في حقبة عرفت بحمى الجاز الذي تبخر لندخل عصر الجاز والألغاز!" وعن ذلك يعبر ياسر شوقي، وهو أحد المفتونين بالرقص وموسيقى الجاز عن تلك الحقبة قائلًا: "الروك في السودان موجود من الستينيات دخول آلة الجيتار - مرجع أبحاث دكتور الفاتح حسين - فنشأة الروك في العالم كانت نتيجة تداخل مجموعة من الأنماط الموسيقية السائدة آنذاك، مثل البلوز والكانتري والفولك. وهذا التداخل ولَّد هجينًا موسيقيًّا، يعتمد أساسًا على ثلاث آلات رئيسية، وهي:

الجيتـار الكهربـائي، البيـس جيتـار، الدرامـز. ودرج أصحـاب الـروك عـلى اسـتعمال الإيقـاع الرباعـي في الدرامـز ٤/٤، والـذي أصبـح شـائعًا بعـد ذلـك، إلى أن تفـرع الـروك إلى أنمـاط أخـرى لاحقًـا مـن الكلاسـيك روك إلى الهيفـي ميتـال وموسـيقى عبـدة الشـيطان والعيـاذ بـالله، أسـهم في تنـوع الإيقـاع ودخـول أوزان جديـدة فيـه تختلـف عـن الـروك مـن الناحيـة الغنائيـة، عـن غيره مـن أنـواع الموسـيقى، في جانـب كونـه يعتمـد عـلى إظهـار القـوة في الأداء الصـوتي، أكـثر مـن الغنـاء الرخيـم والهـادئ. وتحكـم علاقـة الكلمـات بالغنـاء هـذا الأداء الـذي يتضـح عنفوانـه في الكلمـات الثوريـة، ويقـل كلمـا تطـرق إلى الرومانسـية. "... "كان في صالتـين للـروك في الخرطـوم الكريـزي هـورس والبلـو نايـل وبتذكـر كان صاحـب البلونايـل سـوداني كان في أمريكا وصاحبه كان جيمـي هندركيـس، كان في أولاد نـاس بيحبـوا الموسـيقي لجـوني كاش، والرولينـج سـتونز، وفريـق البيتلـز، وجيمـي هندريكـس ومـا تيـسر مـن أسـطوانات مزيـكا. بالمناسـبة الخرطـوم كانـت مـن أعظـم العواصـم الإفريقيـة، الأسـطوانة تـنزل في لنـدن بعد أسـبوع الوكيـل في الخرطـوم تكـون عنـده. المهـم أولاد النـاس ديـل كانـوا بيحبـوا الـروك زي ممـدوح طاهـر فريـد و محمـد إسـماعيل الأزهـري وفي نـاس عايشـين جـو الهيـبز وجيـل الرفـض كمفاهيـم ضـد المجتمـع الجاهـل زي أحمـد تـاور، أنـا وبـاقي الشـلة في العباسـية وأولاد الأقبـاط. لذلـك كنـا بنحـب موسـيقي الـروك، وهـي في الحقبـة ديـك كانـوا مـن البيـض وعشـنا بمحبـة أكـبر احتفـال روك في العالـم للـروك واسـمه وودسـتوك أنـا

شـفت فلمـو في سـينما العرضـة". بنجـاح فـرق الجـاز في تلـك الحقبـة، بشـكل عـام يوضـح نـادر السـوداني في مقـال قصـير لـه بصفحتـه بالفيـس قائـلًا: "ولمـن لـم يعـش حقبـة مـا يعـرف بفـرق جـاز السـودان سر نجـاح كل الفـرق كان العمـل الجماعـي وإتقـان أي فكـرة مـن منظـور المجموعـة ليـس مـن منظـور فـرد دا كان مـن أحـد نجاحـات هـذه الحقبـة وتركهـا بصمـات واضحة عـلى المجتمـع الخرطومـي في بدايـة السـبعينيات، كانـت الفـرق دائمًـا في حالـة تجديـد للأحسـن لأن التنافـس كان في أشـده مـا بـين كل الفـرق".

ما قبل الرياضة المحجبة

إضافة إلى ذلك نبغ وليم - كما أشرنا من قبل - على مستوى المجال الرياضي، في أكثر من منشط، فقد عُرِفَ عنه حبه للرياضة منذ نعومة أظفاره، فمارس رياضة كرة القدم كحارس مرمى، وبرز في الجمباز والسباحة كذلك، ولكنه عشق كرة السلة ونال في ملاعبها شهرة، إذ تدرج في فرق كرة السلة الشهيرة بالعاصمة، فلعب لفريق كمبوني ثم أشبال النادي الكاثوليكي ثم الأولمبي، حتى أثبت جدارة ومهارة، في هذه اللعبة التي عشقها وبرع فيها، ليتم اختياره للفريق القومي السوداني لكرة السلة، وعمره لم يتجاوز السابعة عشر بعد! فيتوج كل ذلك باختياره عن جدارة في منتخب إفريقيا لكرة السلة ١٩٧٥- ١٩٧٦ مع إعيسر وبنجامين، فكان أصغر لاعب، وسط كوكبة فذة من نجوم السلة السودانيين، لتلك الحقبة التاريخية كالإعيسر وملوال وبينجامين وجلدقون وفاروق وأكواج وإدوارد وبونا وأحمد رستم وإستطبولية والجونين لازرو ومايان وغيرهم.

وكانت آخر إنجازات وليم أنه قاد السودان للفوز بالبطولة العربية الثانية للسلة عام ١٩٧٥ بالكويت، فنال وسام الرياضة من الدرجة الأولى عام ١٩٧٦، ولقب نجم البطولة العربية لعام ١٩٧٥. يعبر عن ذلك كابتن أحمد خميس قائلًا: "لقد فقدناه ونحن في أمس الحاجة إليه، في سبتمبر ١٩٧٥ كنا قد حصلنا على بطولة كرة السلة العربية الثانية بالكويت، وحصلنا على كأس البطولة والميداليات الذهبية، وكان الراحل نجم البطولة وأفضل لاعب في البطولة ولقب بالغزال الأسمر. في ديسمبر ١٩٧٥ حققنا المركز الثالث في البطولة الإفريقية بالإسكندرية وشارك معنا الراحل الغزال الأسمر".

حكوا عنه "في الكويت وقبل مقتله ببضع أشهر، في بطولة السلة العربية، ضاقت المدرجات بالمشاهدين، رجالًا ونساءً، لمشاهدة الغزال الأسمر في المباراة النهائية بين السودان والعراق. كان الجمهور بأسره يشجع السودان، ولم يخيِّبْ وليم ظنهم، فقد كانت تلك واحدة من الملاحم الرياضية النادرة في تاريخ البطولات العربية. لعب للسودان يومها، خميس جلدقون ومحمد علي الإعيسر ودود ملوال ومايكل بنجامين وفاروق رحمي ونيكولا أكواج وإدوراد بونا محمد خميس وحبيب إسطنبولية، وكان الغزال الأسمر. تلك كانت أول وآخر بطولة سلة عربية يحرزها السودان. كانت آخر مباراة للغزال الأسمر بين الأوليمبي وفريق جمهورية أوكرانيا الذي زار السودان عام ١٩٧٦ ولعب ثلاث

مباريات: الأولى ضد الهلال والثانية ضد الأوليمبي والأخيرة ضد الفريق القومي (...) كتب عنه الصحافي الكبير نجيب المستكاوي مشيدًا بأداء (الغزال الأسمر) قائلًا بأنه القزم الوحيد في المنتخب السوداني، لكن رمياته لا تخيب أبدًا، ومن أي موقع في الملعب" . علمًا أن وليم أندريا كان قد أعلن اعتزاله ملاعب السلة عام ١٩٧٦ وهو في قمة عطائه ومجده الرياضي، رغم رجاءات وزير الرياضة وقتها في محاولة لإثنائه عن قرار الاعتزال، فإن رد أندريا في تمسكه بقرار اعتزاله كان أن الفن يحتاج إلى تفرغه أيضًا!

وفي سيرة هذا المنشط الرياضي، فإن واقعة محددة، تبرز كيفية تأثر شباب وشابات رياضة وفن ذلك الزمن بالأحداث التي كانت تمور بها قارات العالم من حولهم، وكيفية تآزرهم وتضامنهم مع قضايا الشعوب، وذلك عكس الانطباع السائد عن مجتمعات الرياضيين بأنها سلبية ولا تنفعل بالأحداث الوطنية أو التي تشغل بال العالم سياسيًّا! فقد حدث وأن شارك السودان في دورة المنافسات العالمية للجامعات، في السلة عام ١٩٧٣ بموسكو، وكان من المفترض أن يلعب السودان ضد فريق البرتغال، حينها اتخذ أعضاء الفريق القومي السوداني قرارًا، برفض اللعب أمام البرتغاليين، تضامنًا مع الشعب الأنغولي.. الذي كان وقتها يخوض نضالًا من أجل نيل استقلاله من المستعمر البرتغالي! ٣٣

لا غـرو فقـد أصبحـت لكـرة السـلة "شـنة ورنـة" والـتي ظهـرت بداياتهـا منتصـف سـتينيات القـرن المـاضي واشـتد أوارهـا مـع بدايـة سـبعينيات ذلـك القـرن، وهـذا مـا حـدا بالجنـس اللطيف لولـوج ملاعبهـا والمنافسـة فيهـا، حيـث أصبحـت لعبـة محببـة ومرغوبـة وجاذبـة لمشـجعيها مـن الجنسـين، فـبرزت أسـماء نسـائية أصبحـت لامعـة في أنديـة متعـددة بالعاصمـة، أشـهرها فـرق الأوليمـبي والكاثوليـكي واليونـاني والعـربي والهـلال والموردة، فاشـتهرت فتيـات كمريـم النجومـي وأمينـة إسـطنبولية وعوضيـة مرحـوم وأم الحسـن الصـادق النـور وحسـنية النقـر وسـهام عبـاس ومـنى شـبيكة ومـيرال ومهـا الدحيـش وماجـدة محمـود، ليـلى إبراهيـم وعطيـات وسـميرة طلعـت ومنـيرة فـراج وهـدى عبـاس، ثـم شـقيقات وليـم أندريـا الثلاثـة آمـال وشـادية وكاثرينـا، إلى أن حـلَّ عهـد "الرياضـة مـن وراء الحجـاب"!

ويشـير كابـتن أحمـد خميـس اللاعـب السـابق في المنتخـب الوطـني لكـرة السـلة إلى أوضاعهـم كلاعبـين قدامـى، في هـذا المنشـط قائـلًا بألـم وحـسرة، إنـه "لـم يتـم تكريمهـم حـتى الآن" ، رغـم كل مـا قدمـوه للبـلاد! علمًـا بأنـه لـم يعـتزل منـذ أن خـرج مـن ملعـب السـلة عـام ١٩٧٩ كلاعـب، فقـد ظـل حـتى اللحظـة في مجـال السـلة كخبـير ومـدرب وأسـتاذ، إذ نـال درجـة الدكتـوراة في التربيـة البدنيـة والرياضـة – جامعـة السـودان للعلـوم والتكنولوجيـا، وعمـل كأسـتاذ جامعـي بجامعـة السـودان للعلـوم والتكنولوجيـا، كليـة التربيـة البدنيـة والرياضـة، وأسـتاذ متعـاون بجامعـة الخرطـوم كليـة التربيـة

قسم التربية البدنية والرياضية، وهو حاليًّا عضو في اللجنة الفنية باللجنة الأولمبية السودانية، ومدرب فريق الجيش لكرة السلة منذ ٢٠٠٨ حتى الآن.

ويعرف صديق آخر لوليم وارتباطه به قائلًا: "معرفتي لوليم كانت مدته قصيرة بحكم أني من عشاق كرة السلة، وقد اعتدت أن أحضر مع أحمد رستم تمارين الفريق القومي السوداني في مختلف أوقاتها، وتوطدت معرفتي بوليم أندريه من خلال صداقته بأحمد، وصراحة كان وليم من الشخصيات الساحرة، فلا يمكنك أن تتعرفه دون أن تعجب به، فقد كان بسيطًا صادقًا مكافحًا مرحًا محبًّا للحياة ومحبًّا للناس. وشخصًا كهذا يصعب تصديق أنه قد رحل عن دنيانا دون حتى فرصة لتوديع من أحبهم وأحبوه.. فقد كنا مدة طويلة بعد وفاته نخاله سيدخل علينا في خفته المعهودة مكذبًا ما سمعناه".

أما إحدى أهم الإفادات عن وليم أندريا فيسردها صديقه الشاعر أحمد رستم إذ يؤكد: "حقيقة لا أدري إن كان يعلمها الكثيرون، أنه كان إلى جانب مشاركته في تمارين الفرق القومي وفريق النادي الأولمبي، كان يغني و يساهر الليالي ويتعب هو ليريح أفراد أسرته وأقربائه من ريع هذا الغناء، وكانت الإدارة في المعسكرات تسمح له بالخروج لإقامة حفلاته التي تدر عليه مالًا يعيش منه، ولم تكن تمنعه من ذلك، إذ لا يمكن للنادي أن يوفر له المبالغ التي كان يحتاج إليها

لإعالة أسرته، فقد كان يعول أكثر من أربعين شخصًا وهذا ما قاله لي بلسانه وهذا كما قال لي همه الأكبر. وفي الختام أود أن أقول إن هناك أشياء خاصة كثيرة عن وليم أندريا لا مجال لها في هذه الأوراق، إذ كان يخصني بها شخصيًّا.. ولله ما أعطى ولله ما أخذ".

***

لم يكن الباسكتبول وحده، الذي لمع حقبة السبعينيات. بل لازمته أنشطة أخرى، منذ أن أخذت الرياضة النسوية الحديثة منحى آخر، بقيام معهد التربية الرياضية في عام ١٩٧٥ فأهل مدربات رياضيات في مختلف المناشط، توزعن على الأندية ومدارس البنات، فولجت النساء مختلف ضروب الألعاب، كالطائرة واليد والتنس والسباحة والتايكوندو والكاراتيه والكونغفو والريشة الطائرة والإسكواش والفروسية وغيرها، فأصبح للتربية البدنية الرياضية وألعاب القوى فارساتها وفرسانها، الذين واللاتي "صالوا وجالوا" في تلك الميادين، إذ برزت سارة جاد الله وسلطان كيجاب وممدوح ومنى كرار وسلوى حنون وسهام سعد وهدى حمدي في السباحة، نجم الدين وحيدر الواثق في كرة الطائرة، محمد مرحوم وعلي الأقرع في الملاكمة، زيزي بدري وفريدة وأميرة قلندر، ود. ماجدة محمد علي في تنس السيدات، مصطفى أبشر في البلياردو، جون نرت وفاطمة ونوال أبو العلاء في سباق الدراجات، موسى جودة ومدني وخليفة عمر والكشيف

وطاهـرة في سـباق المسـافات الطويلـة، د. فـردوس يوسـف وعـادل طوبيـا ووفـاء دياب وتغريـد عبـد الرحمـن وأمـيرة قلنـدر وسـلمى ثابـت وبولنـدا أصقـال وعـدلي حامـد وعبـد المنعـم سـعد في تنـس الطاولـة، منـيرة رمضـان في رمـي القـرص، سـنية خليـل في القفـز العـالي، سـامي محمـد عـلي وهاشـم بـدر الديـن وماجـدة في الجـودو، وغيرهـم وغيرهـن، وكانـت بقايـا العـصر الذهـبي لكـرة القـدم السـودانية في سـتينياته، قـد تجلـت في فـوز السـودان ببطولـة الأنديـة الأفريقيـة عـام ٧٠، كان ذلـك زمـن الراحـل وليـم أندريـا، زمـن لـم يعتـدِ عليـه هـادم الملـذات بعـد، وحـين فعـل ذلـك شـهد مجـال الرياضـة النسـائية فـرض رأي يمنـع ممارسـة رياضـة كـرة القـدم النسـائية، إذ اسـتمر هـذا الحجـب لسـنوات عـدَّة، قبـل أن يقـدم مركـزًا يعـني بقضايـا المـرأة والدراسـات النسـائية، بتنظيـم مباريـات وتأسـيس فريـق نسـائي لكـرة القـدم مؤخـرًا، فنظـم مركـز رؤى مبـاراة في العاصمـة السـودانية، الخرطـوم، أول مبـاراة كـرة قـدم نسـائية بعـد تكويـن أول فريـق كـرة قـدم نسـائي، وقـد ووُجِهَـتْ هـذه الفاعليـة بكثـير مـن الإشـكاليات والعراقيـل، وجُفِّفَـتْ أحـواض السـباحة مـن مياههـا والميادين الفسـيحة في السـاحات الشـعبية مـن لاعبيهـا، لتدخـل الرياضـة مـن أوسـع أبوابهـا لسـوق المرابحـة والمضاربـة، فتتاجـر المحليـات والمعتمديـات برغبـة الصبيـة والشـباب في "الدافـوري" بالبحـث عـن أماكـن لممارسـته، لتُشـيَّد سـاحات صغـيرة مقتطعـة ومجهـزة بالإنـارة لتؤجـر بالسـاعة لمثـل هـؤلاء، بعـد أن أُعتـدِي عـلى السـاحات

الفسيحة داخل الأحياء، فصودرت لتوزع على المحسوبين وأهل الحظوة كقطع سكنية غير معلنة ولا تدخل ضمن الخطط السكنية بالعاصمة! كما تشيد أحواض السباحة الخاصة لتؤجر للسباحين الراغبين في ذلك، لعبة كالبلياردو تنعدم طاولاتها في الأندية الرياضية والاجتماعية، فلا تتوفر إلا عبر الحوانيت الصغيرة وسط الأحياء، فيتم تأجيرها لمن يرغب في ممارستها، حيث عبر أحد المتحسرين من زمن وليم أندريا قائلًا بعد أن رصد كل هذا التعدي غير الجائر في زمن ماضي وزمن لاحق "أدركنا بحسرة ما فعلته الرياضة الجماهيرية، كان الجفاف والتصحر الرياضي" ! وعبَّر آخر عن ذلك الزمن بشكل طريف ومتهكم قائلًا: "بجد البلد كانت حلوة متل الشكلاته، ناس الخرطوم غرب والخرطوم تلاتة، وواحدين في عشش فلاته"! .

وختامه مؤسف

يضيف أحد أبناء "حلته" بحي الخرطوم غرب للكاتب، وقد فضَّل حجب اسمه، مشيرًا إلى أخلاق وليم العالية وتهذيبه الجم ومعاملاته الطيبة مع الجميع "عشنا في حي واحد، كان أكبر منا بقليل، عاصرته في نادي العمال وفيما بعد في الباسكت والمدرسة، كان ناجحًا في دروسه وبرضه على المستوى الرياضي والفني، يا للأسف فقد تم التعامل معه بعدم إنصاف وجحود بالرغم من إسهاماته في الانتصارات الرياضية للسودان، كان من المفترض أن تخلد اسمه مؤسسات الدولة، فقد تعرض للإهمال سهوًا أو عن قصد.. الله يعلم"!

وأخيرًا تأتي إفادة شقيقه فائز للكاتب قائلًا ردًّا عن سؤال حول ما إن اضطرت الأسرة إلى مغادرة السودان بسبب ما حدث لابنها وليم: "أبدًا.. لا توجد علاقة ولا تأثير لرحيل وليم بقرار نزوح الأسرة لخارج السودان"! موضحًا معلومة في غاية الأهمية تتعلق بالفرقة الموسيقية، وهو ما أشرنا إليه سابقًا، إذ أكد أنها لم تكن تحمل اسم "فرقة وليم

أندريا" في البداية، إلا بعد رحيله المأساوي، فقد كان اسم الفرقة هو "أب تايدس"! مضيفًا بأن كأسًا قد خصص لذكرى وليم، وكان من المفترض أن تنتظم في دورة إحياء ذكراه فرق الباسكت بول كافة، ولكن لسبب ما فإن هذا الأمر لم يتم، وأن فريقه الأوليمبي هو الوحيد الذي اهتم بتخصيص دورة تنافسية لإحياء ذكراه، وفيما بعد علمنا بتنظيم دورة أخرى فقيرة من أجل هذا الهدف، ولكن على مستوى الدولة والمسؤولين فإن أمرًا كهذا لم يتم مطلقًا "ولا أملك أي تفسير لهذا الأمر"!

***

وهكذا غادرنا أندريا، ليلحق بأنداده الذين رحلوا غيلًا وغدرًا، في الوسط الفني في السودان، فيضاف رحيله المأساوي، إلى رحيل المطربين السودانيين زنقار، وخوجلي عثمان، وبدر الدين عجاج، إضافة إلى الشاعر الغنائي الطروب عوض جبريل! وأما في الوسط الرياضي، نذكر لاعب الموردة والفريق الأهلي السوداني، منذ خمسينيات القرن الماضي، المرحوم بكري عثمان الذي اغتيل أيضًا في حادث مسجد الجرافة المأساوي نتيجة للشحنات "العقائدية" المتطرفة!

رحل الغزال الأسمر الذي جمع بين "الكفر والوتر" بعد أن عطر مغارب العاصمة بمهاراته الرياضية، وأمسيات صالاتها الراقصة بوصلاته الغنائية! فتى زاهٍ وباهٍ رحل عن عمر لم

يتجاوز الخامسة والعشرين.. رحل عنا هكذا.. غيلًا وغدرًا، وكأني بلسان حاله يردد "أضعتموني.. وأي فتى أضعتم"! هكذا دون إجراء أي تحقيق شفاف حول ملابسات وكيفية رحيله الفاجع، هكذا دون ومضة من وداع أو تخليد أو تذكر، اللهم إلا ذكرى فقيرة بادر بها معهد الموسيقى والمسرح بمبانيه في شارع ٥٩ في الامتداد عندما خصص إحدى قاعات التدريب الموسيقي باسم "وليم أندريا" ليختفي فيما بعد عند انتقال المعهد نفسه إلى أكثر من مقر، هكذا إذن التجاهل، ليضيف ذلك إلى مأساة، أهل الفنون والرياضة والثقافة ومجالات أخرى كثيرة ومتعددة في السودان، بعدًا جديدًا أكثر فاجعة ومأساوية، ما يزال يلف حياة هذه الحقول تحديدًا، بمثل هذا التجاهل والإهمال وعدم العناية "بناسها ووناسها"! فأضحى وليم فقيدًا عزيزًا للبلاد التي أضاعته – ضمن من أضاعت - تحت أرجلها المعفرة بعدم الاستقرار والطمأنينة والسلام لإنسانه! فالرحمة تغشى شآبيب قبره.

ملحق الصور

وليم أندريا

البلوستارز من اليمين عمر قيليبيز جيتار، صلاح دهب فلوت، الراحل عبد الرزاق الطيب جيتار، عاصم زين ريزم جيتار

أول فريق نسائي لكرة السلة أنشأته مريم النجومي عام ١٩٦٣

السباح السوداني سلطان كيجاب مع الراحل الأمير فيصل بن فهد

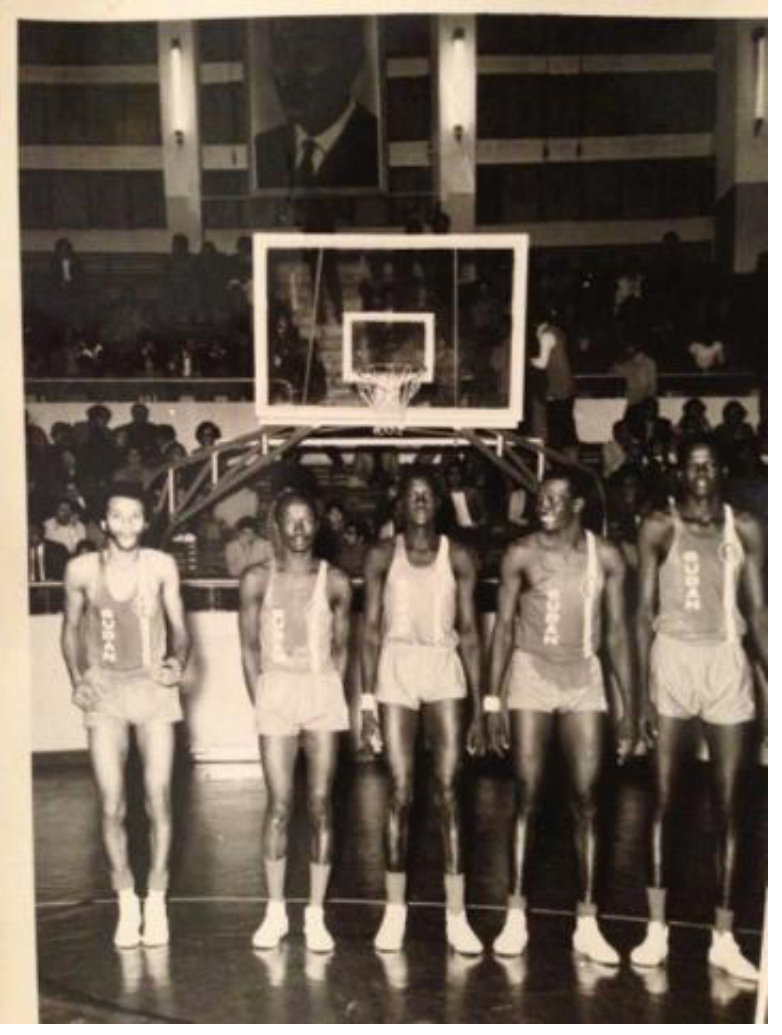

الراحل أندريا مع فريق كرة السلّة

السباح ممدوح مصطفى

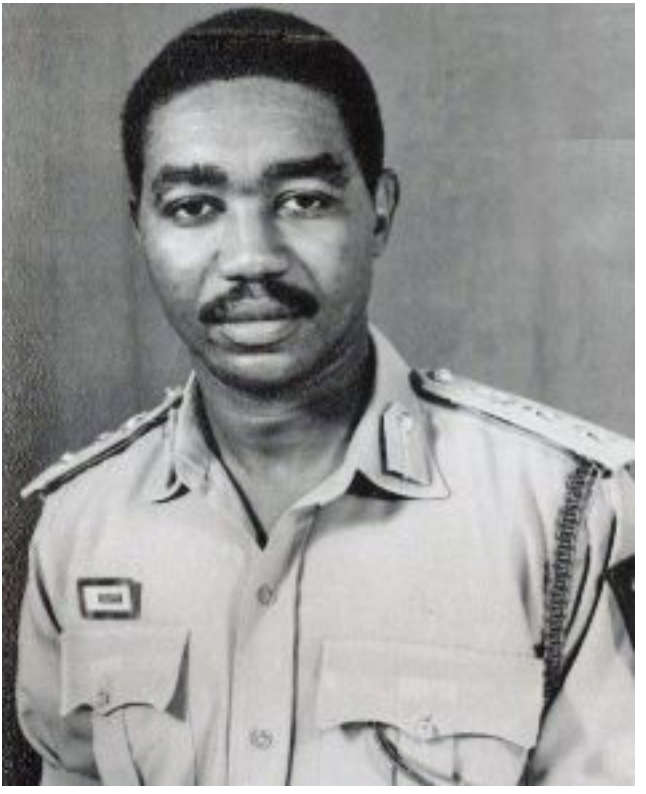

الشهيد محمد نور سعد

رائدات سلة الهلال

تغريد عبد الرحمن - بكين ١٩٧١

سباحات في بكين - أول السبعينات

صلاح براون عام ٧٤ بملهى في أسمرا

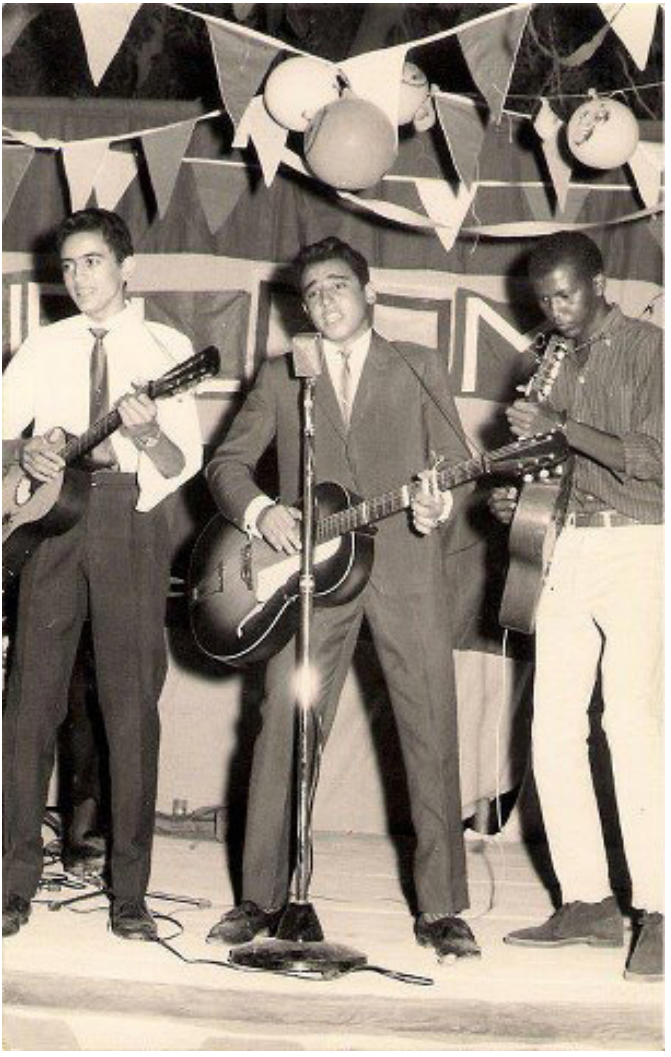

سمير اسكندر ويوسف رمضان

فرقة أضواء بحري بقيادة بدر الدين عوض

فرقة الأفارقة عواطف، عوض عمر جيتاريست، صلاح براون، فاروق كمال على الساكس

فرقة جاز العقارب ١٩٦٠ المؤسس الطيب رابح من الشمال، حموري ، فؤاد علامة، عامر ناصر (ساكس).

فريق النادي العربي للكرة الطائرة

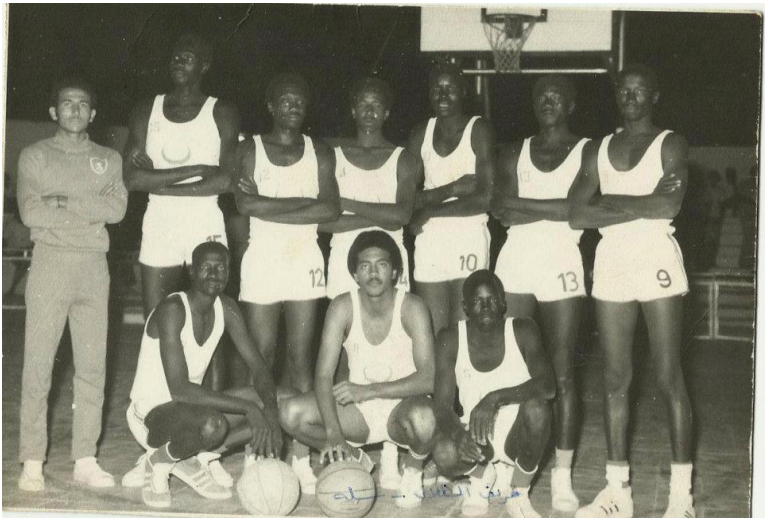

فريق الهلال للسلة والطائرة عام ١٩٧٥ م

وليم في الاسكندرية بطولة الالعاب الافريقية ١٩٧٢

وليم أندريا في القاهرة

منال سليمان، أحدى صديقات أسرة أندريا

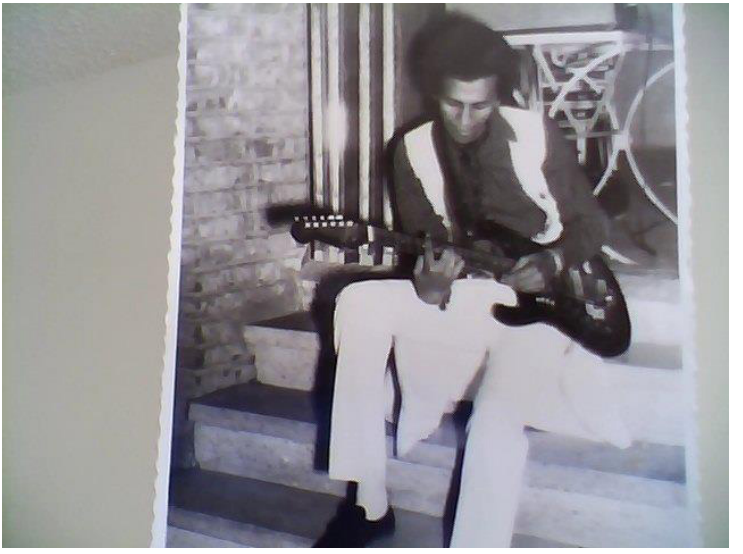

وليم بالجيتار

فريق النادي اليوناني ومدرسة الراهبات

وليم مع رفاقه

وليم أندريا وفرقته من أحدى حفلات رأس السنة

وليم أندريا مع رفاقه

يوسف شدياق عازف الدرامز في فرقة سمير إسكندر

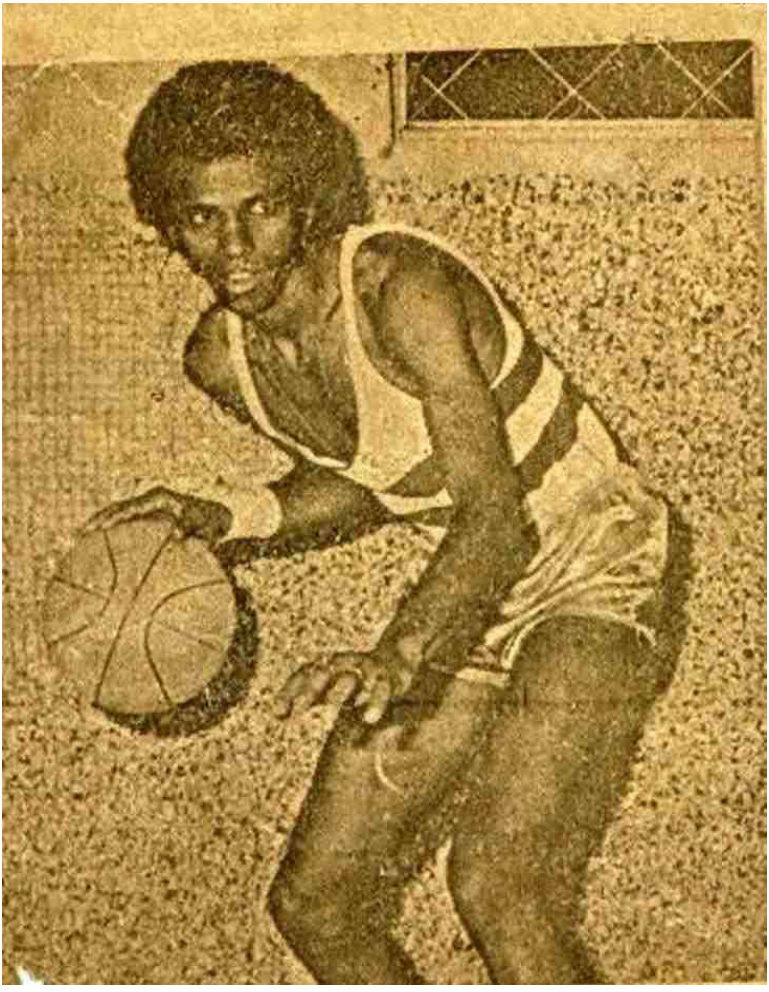

الراحل وليم أندريا

الفهرس

تقديم الطبعة الثانية	٩
تقديم الطبعة الأولى	١٣
تصدير	١٩
مدخل صادم	٢١
غزال يمرح على جنبات العاصمة	٣٧
عاصمة مموسقة وترويح إبداعي	٥٣
كلكم تشتلون الورد على مقابر الخرطوم!	٧٩
أشواق لجماليات الحياة ووجودها الإنساني	٩١
ما قبل الرياضة المحجبة	١٠٨
وختامه مؤسف	١١٦
ملحق الصور	١٢١

Willows House
منشـــورات
ويلوز هاوس
WH
™